الروضات العرشية
في الكلام على الصلوات المشيشية

لسيدي عبد السلام بن مشيش

المتوفى ٦٢٢ هـ

تأليف

شيخ الإسلام قطب الأقطاب مصطفى بن كمال الدين البكري

المتوفى ١١٦٢ هـ

تحقيق وتعليق وتخريج

الشيخ أحمد فريد المزيدي

بسم الله الرحمن الرحيم وبه الفتاح العليم

الحمد لله رب العالمين حمد العاملين به والعالمين حمدا نكون به من المتقين وعلى النفوس بالتزكية منعمين بحول ذي الحول وقوة ذي الطول المبين لسلك الطريق الواضح البين والصلاة والسلام على من جعل الله في ميلادنا عليه صلاتنا وفي حياتنا الملائكة عليه تغدينا وعشياتنا اذ عنه كانا الظهور وبسببه وقرا الفضل والحمد لله نبينا بنبيه وسيدنا بسببه فتقاوننا عن تمام اعداده وامداده وحياتنا الظاهرة والباطنة بواسطة اسعافه واسعاده فوفقنا الحمد والحمدنا المقصود وسرجنا الاقوم ومنهاجنا الاتم وسراجنا الانور ومناجنا الاخير ونور الاسنى ودستورنا الاوفى النبي المجتبى فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى بحر السر البهيج وبدر الروح السابح الباب الاعلى والمآب الاسنى مظهر الحقايق ومظهر الرقايق مشرع الشريعة والطريقة والحقيقة ومشرع اظهر كل لطيفة ودقيقة سيد سكان كل فيء سيادة وزاد زاد به نيل النيل منتهى الزيادة عمدة الحضرات وعروس المظهرات امام كل امام ومقدام بر عرف الوري على الامام سر البشر الجامع للدال عليه وحجابه الاعظم القايم لديه بين يديه مفتاح ظهر به سر الغيوب ومصباح ظهر من نشر الصبوب بزغ كل المسرة طالع ولوائي بالبرهان ساطع مركز نقطة دايرة الوجود وسر حيطتها الشاع قبة ان من الشهود ودرخشتها البزخ اين الاسرار المطلسمة وخازن الانوار المجموعة القسمة كنز سر الاحدية ومظهر الواحدية من البسته اشرف حلة اتى خصصته وجعلته للمكرمات مثله ومنحته خلعة لم يسلم حلة ولم يحمل له احد الى خلعة صلى الله تعالى عليه وعلى آله واصحابه الذين كشفوا له عن وجوه المعاني وارشفوا بسمه كشفهم الاطايب المعاني وعلى التابعين وتابعيهم الى يوم القيمة ما تلاع سحب بديع الاقتراح صلى بلغاء الملائكة وسلم تسليما وعظم تعظيما وبعد

الشيخ رضي الله عنه طلب من ربه سبحانه ان يمن عليه بكل من يدخل
الكهف من اتباعه الرحمة والرشد في الامر ان يدخل كهفه ليؤمن
من المكر والاستدراج فان مطالبه اعظم المطالب فكأنه يقول
فاذا امننت على يا رب بمطالبي السالفة فآتني رحمة من عندك
اتقوى بها على حمل ما اعلمتني وهيئ لي من امري رشدا بخوبة من
مكرك فانه لا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون قال الشيخ
اسماعيل بن عبد الكريم رحمه الله تعالى في كتاب لواقح الانوار قدس
الله سره ونفعنا به عن قوله القادر ينزل
ان عبدا نزل في الدهر يوما تلك عين من العمى في امانا
فقلت يصح عدم الخوف لصاحب هذه العين والمقام فقال ايده الله
تعالى ثم اصل ينبغي ان تعلمه وتحققه به قلت ان شاء الله تعالى
يا سيدي قال وهو ان لا تحكم على الله تعالى بشيء ولو بلغك على
المآبت واكلها وتقول لكل قد ضيت عنك رضاك الاكبر فبعد هذا كله
لا ينبغي ان تؤمن الالوهية حقها وانظر الى الخبر الذي ورد عن
جبريل عليه السلام قيل عليهما السلام انهما كانا يبكيان فقال لهما الحق
وهو اعلم ما الذي يبكيكما فقالا خوفا من مكرك فقال لهما بحانه كذلك
فكونا انتما وقد سأل الله تعالى اهل الكهف ما سخه الحق لخضر عليه
السلام فحصلت المناسبة بينهم فلهذه المناسبة جمعهم الله في
سورة واحدة اشارة ان المطلب والمشرب واحد وقد جمع الخضر في
شربه بين شربه من عين ماء الحياة الذاهرة وعين ما الحياة
الباطنية واهل الكهف اقتصروا على الثانية فحصلت المناسبة
ايضا ولما سأل المؤلف ان يجعل الحق له خير الاعظم حياة روحه ليكون
ممن سقي من عين ماء الحياة الباطنة الابدية ناسب ذكر اهل
الكهف الذين شربوا منها ثم انه رضي الله عنه سأل سؤالا ليبشر انه قد نال

صورة الصفحة قبل الأخيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

صَلَوَات سيدي ابْن مَشِيش رَضِيَ الله عَنْهُ

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مَنْ مِنْهُ انْشَقَّتِ الأَسْرَارُ وانْفَلَقَتِ الأَنْوارُ، وَفِيهِ ارْتَقَت الْحَقَائِقُ وَتَنَزَّلَتْ عُلُومُ آدَمَ فَأَعْجَزَ الْخَلَائِقَ، وَلَهُ تَضَاءَلَتِ الْفُهُومُ فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا سَابِقٌ وَلَا لَاحِقٌ، فَرِيَاضُ الْمَلَكُوتِ بِزَهْرِ جَمَالِهِ مُونِقَةٌ، وَحِيَاضُ الْجَبَرُوتِ بفيض أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَةٌ، وَلَا شَيْءَ إِلَّا وَهُوَ بِهِ مَنُوطٌ إِذْ لَوْلَا الوَاسِطَةُ لَذَهَبَ كَمَا قِيلَ الْمَوْسُوطُ، صَلَاةً تَلِيقُ بِكَ مِنْكَ إِلَيْهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ.

اللَّهُمَّ إِنَّهُ سِرُّكَ الْجَامِعُ الدَالُّ عَلَيْكَ وَحِجَابُكَ الأَعْظَمُ الْقَائِمُ لَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ.

اللَّهُمَّ أَلْحِقْنِي بِنَسَبِهِ وَحَقِّقْنِي بِحَسَبِهِ، وَعَرِّفْنِي إِيَّاهُ مَعْرِفَةً أَسْلَمُ بِهَا مِنْ مَوَارِدِ الْجَهْلِ، وَأَكْرَعُ بِهَا مِنْ مَوَارِدِ الْفَضْلِ، وَاحْمِلْنِي عَلَى سَبِيلِهِ إِلَى حَضْرَتِكَ حَمْلاً مَحْفُوفًا بِنُصْرَتِكَ، وَاقْذِفْ بِي عَلَى الْبَاطِلِ فَأَدْمَغَهُ، وَزُجَّ بِي بِحَارِ الأَحَدِيَّة، وَانْشُلْنِي مِنْ أَوْحَالِ التَّوْحِيدِ، وَأَغْرِقْنِي فِي عَيْنِ بَحْرِ الوَحْدةِ حَتَى لَا أَرَى وَلَا أَسْمَعَ وَلَا أَجِدَ وَلَا أَحِسَّ إِلَّا بِهَا، وَاجْعَل الْحِجَابَ الأَعْظَمَ حَيَاةَ رُوْحِي، وَرَوْحَهُ سِرَّ حَقِيقَتِي، وَحَقِيقَتَهُ جَامِعَ عَوَالِمِي، بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ الأَوَّلِ.

يَا أَوَّلُ يَا آخِرُ يَا ظَاهِرُ يَا بَاطِنُ: اسْمَعْ نِدَائِي بِمَا سَمِعْت بِهِ نِدَاءَ عَبْدِك زَكَرِيَّا، وانْصُرْنِي بِكَ لَكَ، وَأَيِّدْنِي بِكَ لَكَ، وَاجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ غَيْرِكَ (ثلاثًا).

اللهُ اللهُ اللهُ

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (ثلاثًا).

بسم الله الرحمن الرحيم

وربنا الفتاح العليم

الحمد لله رب العالمين، حمد العاملين به والعالمين، حمدًا نكون به من المنعَّمين، وعلى النفوس بالتزكية مُنْعَمِين، بحول ذي الحول، وقوة ذي الطول المتين، لنسلك الطريق الواضح المبين، والصلاة والسلام على مَن جعل الله في صلاتنا عليه صلاتنا، وفي تحياتنا المباركة عليه بقاؤنا وحياتنا؛ إذ عنه كان الظهور وبسببه، وقد اتصل -والحمد لله- نسبنا بنسبه، وسببنا بسببه، فبقاؤنا عن استمداده وإمداده، وحياتنا الظاهرة والباطنة بواسطة إسعافه وإسعاده، فهو محمدنا المحمود، وأحمدنا المقصود، ومعراجنا الأقوم، ومنهاجنا الأفخم، وسراجنا الأنور، وتاجنا الأفخر، ونورنا الأَسْنى، ودستورنا الأدنى، الذي [دنا][1] فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، بحر السر العجاج، وبر البر الوهاج، الباب الأعلى، واللّباب الأغلى، مَظهر الحقائق ومُظهر الرقائق، مشرع الشريعة والطريقة والحقيقة، ومُشَرِّعٌ أظهر كل لطيفة ودقيقة، سيدٌ ساد به كل ذي سيادة، وزادٌ زاد به نيل النيل وتمت الزيادة، عروس الحضرات، ومحروس النظرات، إمام كل إمام، ومقدام به عرف [الوراء][2] والأمام، سر السر الجامع، الدال عليه، وحجابه الأعظم القائم له بين يديه، مفتاح ظهر به سر الغيوب، ومصباح طهر من شر العيوب، برزخ كلي للسر جامع، ونوراني بالبر هامع، مركز نقطة دائرة الوجود، وسر حيطتها الشامخ، قبة أرين الشهود، ودر خاصتها الباذخ، أمين الأسرار المطلسمة، وخَدِين الأنوار المجموعة المقسمة، كنـز سر الأحدية، ورمز برِّ الواحدية، من ألبسته أشرف حلة، وخصصته وجعلته للمكرمات جلة، ومنحته خلة هي أعظم حلة، ولم تجعل له إلى أحد خلَّة، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه الذين كشفوا به عن وجوه المعاني، وأرشفوا بعد كشفهم الطالب المعاني، وعلى التابعين وتابعيهم إلى يوم القيامة، ما تدرَّع صبٌّ بدرع الاقتداء حتى بلغ دار السلامة، وسلّم تسليمًا، وعظّم تعظيمًا.

وبعد... فيقول أفقر الأنام وأحقر الخدَّام، مصطفى بن كمال الدين الصديقي نسبًا، الخلوتي الحنفي مذهبًا ومشربًا: قد ورد عليَّ كتاب جسيم نفيس، بعد عصر يوم الخميس،

---

(١) في الأصل: (دنى).

(٢) في الأصل: (الورى).

الثاني أو الحادي عشر من شعبان المبارك الغرة والآخر، الحاوي نسبته لسيد البشر أعظم المفاخر، الذي هو من شهور ألف ومائة وأربع وثلاثين من محبٍّ ودود كدود، في صلاحه كدود، حبه رابي، مشروبه صابي محقق، ومشروب غيره كالشراب السرابي، أعني به صديقنا الشيخ عبد الله بن أحمد الشاذلي الشرابي، كان الله له وأفناه به عنه، وحققه شهوده وفكَّ قيوده منًا منه، يتضمن طلب شرح الصلوات النبوية المنسوبة لابن مشيش الداني، من حضرات التهاني، وقد اعتنى بشرحها سيدي محمد بن علي الخروبي الطرابلسي[1] الهمام، والعارف الكامل المقدام، فأحببت أن أرسل له شرحه، ثم حببَّ لي أن أشرح شرحه، وأجتني من رياضه الزاهرة، وأقتني بدائع غياضه الباهرة، وأضم إلى ذلك فوائد شرائد، تعود على من اعتدَّ بها بالفوائد، وصرت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، لعلمي أن عدم التقدم بها أحرى؛ إذ لست من أهل هذا الميدان وفرسانه، وأبطاله المعدودين للشدائد المدلهمة وشجعانه، غير أني معرّف بالقصور مغرّف من بحر أهل المعالي والقصور، ثم إني استخرت الله تعالى واستجرت بجنابه من الخطأ والخطل والميل، ولذت وعذت به شهود القوة والحيل، وسميَّت ما أكتبه بـ«**الروضات العرشية في الكلام على الصلوات المشيشية**».

فالخروبي هو الشارح؛ إذ هو الذي فتح هذا الباب، وأنا السارح في بستانه ألتقط منه اللباب، وحيث قلت: قال الشارح فهو المراد؛ لأني لم أقف لغيره على شرح يشفي الفؤاد، وها أنا أشرع في المقصود، ومنه ﷻ استمد عوائد الجود، فأقول:

اعلم أيها الأخ فتح الله منك الأسماع؛ ليحسن لديك الاستماع، وخلصك من القيود المانعة القاطعة، وأشهدك عجائب الوجود التي أنوارها ساطعة، أن مؤلف هذه الصلوات النبوية هو الأستاذ الكبير والملاذ الخبير، أبو محمد عبد السلام بن مشيش- بالميم، وقيل: بالباء الموحدة من تحت - مشرقي الأصل، مغربي الوطن، فإنه ذكي الفطن، والنسب الطاهر من بني الحسن، وهذا الإمام غني عن التعريف؛ إذ هو كنارٍ على عَلَم، بَعُدَ صيته، وطار في الآفاق واستنارت به الظلم، شهدت له بالكمال رجالٌ وأيُّ رجالٍ، وعُدَّ من الأبطال، فما على

(١) هو الشيخ العلامة أبي عبد الله بن محمد بن علي الخروبي الطرابلسي الجزائري، المالكي، توفى بالجزائر سنة ٩٦٣هـ، من آثاره: الحكم الكبرى، الأنس في التنبيه على عيوب النفس، كنز الأسرار في تفسير القرآن في ثمانية مجلدات وشرح الصلاة المشيشية.

الواصف له إن أوجز أو أطال، أخذ الطريق عن أكابر، منهم الشيخ عبد الرحمن المدني، ثم واحدًا بعد واحد إلى الإمام الحسن بن علي ﷺ أجمعين.

وأخذ منه أكابر أفراد، وسادة أمجاد، منهم الإمام الهمام، والعارف المقدام أبو الحسن علي الشاذلي ﷺ.

ومما يدلك على علو شأن منشئ هذه الصلوات أخذ مثل هذا الأستاذ عنه، وتلقيه منه؛ فإنه معدود من كُمَّل أفراد هذه الأمة الذين بهم استنار وجه الدهر، وانكشفت الغمة، فيا له من سيِّد مَن استند إليه نجا، ومن اتبع أثره بلغ به من ربه ما دَجا.

قال المؤلف: (**اللَّهُمَ صَلِّ عَلَى مَنْ مِنْهُ انْشَقَّتِ الأَسْرَارُ وانْفَلَقَتِ الأَنوارُ**).

(**اللَّهُمَ**) بمعنى: يا الله، حذف منه حرف النداء وعوّض عنه الميم للتعظيم والتفخيم، هذا مذهب البصريين، وقال الكوفيون: أصله: «يا الله أمَّ بخير» فكثر استعماله فحذفت الهمزة تخفيفًا وتركت الميم مفتوحة، ولا يقال: (يا اللهم) لئلا يجمع بين البدل والمبدل منه، وسمع في الشعر وأنكره الزجاج[1].

قال الشارح: فقوله (اللَّهمَّ) هو توجّه للمطلوب، وطلب لحصول المرغوب، فتوسل بالاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ولفَظَ به بصيغة حذف منها ياء النداء المتضمنة لوجود البينونة المعنوية النفسانية؛ إذ حذفها يقتضي زوال ذلك، ولا شك أن الشيخ كان مقامه حين خاطبه بهذه التصلية مقام جمع[2] غائبًا عن الفرق[3]، وتعويض الميم عن الياء في لفظ الجلالة يقتضي قوة الهمة في الطلب والجزم به.

---

(١) فائدة: قال ابن عابدين في مجموع رسائله (ص٣٣٢) نقلاً عن بعض السلف: اللهم مجمع الدعاء، والميم في آخره بمنزلة ميم الجمع، فإذا قال الداعي: اللهم فكأنه دعاء بجميع أسمائه.

قال: ولاستغراقه أيضاً لجميع أسماء الله وصفاته لا يجوز أن يوصف لأنها قد اجتمعت فيه، وهو حجة لما قال سيبويه في منعه وصفه اهـ. بحاصله.

وقال أبو رجاء العطاردي: الميم فيها تجمع سبعين اسماً من أسماء الله تعالى، وقال ابن ظفر؛ قيل: إنها الاسم الأعظم، واستدل لذلك بأن الله دال على الذات، والميم دالة على الصفات التسعة والتسعين، ولهذا قال الحسن البصري: اللهم تجمع، وقال النضر بن شميل: من قال: اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه اهـ. الإتقان للسيوطي (١/ ١٥٣).

(٢) الجمع: هو شهود الحق بلا خلق.

(٣) الفرق: هو إشارة إلى رؤية خلق بلا حق، وتارة يطلق ويراد به مشاهدة العبودية.

وإنما جعل هذا الاسم الأعظم في أوائل الأدعية غالبًا؛ لأنه جامعٌ لجميع معاني الأسماء الكريمة، وهو أصلها؛ فجميع أسماء الله تعالى راجعة إليه، قال ابن رجاء العطاردي: في قولك (اللّهم) تسعة وتسعون اسمًا من أسماء الله تعالى، وقال النضر بن شميل: الميم في قولك (اللّهم) بمثابة ميم الجمع، فإذا قلت: (اللّهم) كأنك دعوت الله بأسمائه كلها، فعلى هذا من دعا أو توسل به، فكأنما دعا بأسماء الله تعالى وتوسل بها، ولذلك قال الحسن البصري ﷺ، في قولك: (اللّهم) مجمع الدعاء. انتهى.

وقال سيدي محمد بن أحمد الفاسي -شارح «الدلائل»-: قال الإمام أبو محمد البطليوسي- يعني: ابن السيد- فيما قرأت عليه: ومعنى هذا - أي: معنى قول النضر بن شميل- إن الميم في كلام العرب تكون من علامات الجمع، ألا ترى أنك تقول: (عليه) للواحد و(عليهم) للجمع؟ فصارت الميم في هذا الموضع بمنزلة الواو الدالة على الجمع في قولك: (ضربوا) و(قاموا)، فلما كانت كذلك زيدت في آخر اسم الله تعالى لتشعر وتؤذن بأن هذا الاسم قد اجتمعت فيه أسماء الله تعالى كلها، فإذا قال الداعي: (اللهم) كأنه قال: (يا الله الذي له الأسماء الحسنى).

قال: ولأجل استغراقه أيضًا لجميع أسماء الله تعالى وصفاته لا يجوز أن يوصف؛ لأنه قد اجتمعت فيه، وهو حجة لما قال سيبويه. انتهى.

يعني: في منعه وصفه لأجل ما تضمنه هذا اللفظ من عظيم الثناء يؤثر ويرغب في التوجه به في الدعاء، وقيل فيه: إنه اسم الله العظيم الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى.[1] انتهى.

(صَلِّ) أي: اثنِ، أو شرِّف، أو كرِّم، أو عظِّم، أو اجعل رحمتك المقرونة بتعظيمك، وقد اختلف في معنى الصلاة، فقيل: معناها الرحمة والرضوان من الله، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن الآدميين: الدعاء، وقيل: صلاته مغفرته، وقيل: رحمته المقرونة بالتعظيم، وقيل: تشريعه وتكرمته على أنبيائه، ورحمته على من دونهم.

---

(١) وانظر فيما مرَّ من ذلك: شرح الأشموني علي الصبان (٣/ ١١٢)، والهمع للسيوطي (١/ ١٧٨)، وعمدة القاري شرح البخاري للعيني (٢/ ٢١)، وسيرة ابن هشام (١/ ٨، ١٥٠، ١٦٦).

قال شارح «الدلائل»: قال الحليمي[١] في «الشعب»: معنى الصلاة على النبي ﷺ: تعظيمه، فمعنى قولنا: (**اللّهم صلِّ على محمد**) أي: عظِّم محمدًا، والمراد تعظيمه في الدنيا بإعلاء ذكره، وإظهار دينه، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا، فالمراد بقوله تعالى: ﴿**صَلُّوا عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب:٥٦] ادعوا ربكم بالصلاة عليه. انتهى.

قيل: ولا يعكر عليه عطف آله وأزواجه وذريته عليه؛ فإنه لا يمتنع أن يُدعى لهم بالتعظيم؛ إذ تعظيم كل أحد بحسب ما يليق به. انتهى.

لاسيما وهم منسوبون إليه ﷺ، والدعاء لهم واقع بالتبع له.

وقال أبو العالية: صلاة الله على نبيه: ثناؤه عليه عند ملائكته. وصلاة الملائكة عليه: الدعاء.

قال ابن حجر[٢]: وهذا أولى الأقوال، فيكون معنى صلاة الله تعالى عليه: ثناؤه عليه وتعظيمه، وصلاة الملائكة وغيرهم: طلب ذلك من الله تعالى، والمراد طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة.

وقيل: إن المراد بالصلاة الاعتناء بشأن المصلَّى عليه، وإرادة الخير له، وهو الذي ارتضاه الغزالي[٣]، واستحسنه الزركشي[٤] في «شرح جمع الجوامع» لأنه قدر مشترك، وصلاة العبد

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، البخاري، الشافعي، ولد سنة ٣٣٨هـ، وتوفى سنة ٤٠٣هـ، له منها: منهاج الدين في شعب الإيمان، طبع، في مجلدين وفي ثلاثة، وله أيضاً: أيان الساعة وأحوال يوم القيامة. وانظر: سير أعلام النبلاء (١١/ ٥١).

(٢) هو الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ولد ٧٧٣هـ، وتوفى ٨٥٢هـ، ومشاهير الأعلام وله فتح الباري شرح صحيح البخاري، والدرر الكامنة، وذيلها والعجاب في بيان الأسباب، وكشف الستر عن حكم الصلاة بعد الوتر، ثلاثتهم بتحقيقنا، وكان كثير التصنيف. انظر: الجواهر والدرر في أخبار الحافظ بن حجر للسخاوي، والبدر الطالع (١/ ٨٧).

(٣) هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ولد ٤٥٠هـ، وتوفى ٥٥٥هـ، له: إحياء علوم الدين، والوسيط في الفروع، والوجيز، والمستصفى، ومقاصد الفلاسفة، ومحك النظر، ومقامات العلماء، وإلجام العوام، والتبر المسبوك، وسر العالمين، والفصول، والخلاصة، عشرتهم بتحقيقنا. وانظر في ترجمته: في: طبقات الشافعية للسبكي (٦/ ١٩١).

(٤) هو الشيخ محمد بن بهادر الزركشي ولد ٧٤٥هـ، وتوفى ٧٩٤هـ، له البرهان في علوم القرآن، والتنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، والأزهية في أحكام الأدعية، كلاهما بتحقيقنا [الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٧].

المأمور بها الدعاء بلفظ الصلاة، خُصَّ الأنبياء بذلك تعظيمًا لهم.

ثم الصلاة تستعمل اسمًا، وهي هذه [التي] [1] اختلف في معناها، وتكون بمعنى الصدر الذي هو صدورها، ولهذا غايرا في «الصحاح» «والقاموس» بينهما فقالا: الصلاة: الدعاء والرحمة والاستغفار وحسن الثناء من الله على رسوله، وعبادة فيها ركوع وسجود، واسم يوضع موضع الصدر يقال: صلى صلاةً لا تصلية دعيّ. انتهى بلفظ «القاموس».

ثم قال: والأمر في الآية حمله العلماء على الوجوب، أي في آية ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ﴾ [الأحزاب:٥٦]. وحكى الحافظ أبو عمر بن عبد البر عليه الإجماع، وشذَّ ابن جرير الطبري فحمله على الاستحباب، وادَّعى الإجماع على ذلك القاضي عياض وغيره، ولعله أراد ما زاد على الواحدة، وإلا فقد خالف الإجماع؛ لأن الإجماع منعقد على وجوبها في الجملة. انتهى.

ولعله أراد بالاستحباب مطلق الطلب الصادق بالوجوب والندب – والله أعلم – ثم اختلف في ذلك الوجوب على تسعة أقوال، ثم سرد الأقوال وذكر المواطن التي تستحب الصلاة فيها عليه كيوم الجمعة وليلتها، والسبت، والأحد، والخميس وغير ذلك، ثم قال: وقال الكواشي: وطريق الأدب والاحتياط أن يصلي على النبي ﷺ كلما ذُكر. انتهى.

ثم إنما يصلي على النبي ﷺ بنية القربة والاحتساب وقصد التعظيم ورجاء الثواب، ولهذا كره العلماء الصلاة عليه في سبعة مواضع وهي: الجماع، وحاجة الإنسان، وشهرة المبيع، والعثرة، والتعجب، والذبح، والعطاس، على خلافٍ في الثلاثة الأخيرة.

وذكر الشيخ يوسف بن عمر الأكل بدل شهرة المبيع، وزاد الرضاع ما يصدر من العوام في الأعراس وغيرها من إشهاد أفعالهم للنظر إليها بالصلاة على النبي ﷺ، مع زيادة عدم الوقار والاحترام بل بضحك ولعب، ثم ذكر من المواضع التي نهي عن الصلاة عليه فيها الأماكن القذرة وأماكن النجاسة -والله أعلم- انتهى.

وقال الشارح - رحمه الله تعالى-: وقوله «صلِّ» طَلَب من الله تعالى ودعاء أن يُصلي على نبيه ﷺ، والصلاة من الله تعالى على نبيه ﷺ زيادة تكرمة وإنعام، ومن الملائكة رحمة واستغفار، ومن العباد دعاء، فتكريم الله ﷻ لرسوله ﷺ زيادة في تشريفه وتقريبه منه،

(١) في الأصل: الذي.

والصلاة على رسول الله ﷺ من العبيد وسيلة للقرب منه عليه الصلاة والسلام، كما جعلت هدايا الفقراء إلى الأمراء وسائل، ليتقربوا بها إليهم، وليعود نفعها عليهم؛ إذ هو ﷺ لا يحتاج إلى صلاة أحد، وإنما شرعت تعبّدًا لله تعالى وقربة إليه، ووسائل للتقرب إلى جنابه المنيع ومقامه الرفيع ﷺ.

وهي من العبيد على سبيل التأكيد لا على سبيل التأسيس كما هي من الله تعالى، فافهم؛ إذ صلاة الله على رسوله ﷺ سبقت صلاة غيره، ولا يحتاج إلى صلاة غير الله تعالى بعد صلاته تعالى عليه، ولكن جعلها لعباده سبيلاً للوصول إلى رضاه تعالى، وبابًا للدخول عليه سبحانه، ومعراجًا للكمالات، ومفتاحًا لأبواب الخيرات، وسببًا لنيل البركات وحصول الكرامات.

وهي أفضل عبادات المتعبدين، وأعظم قربات السالكين، وأدلّ دليل على إرادات المريدين، وعلامة على صدق المحبين، وكهف إيواء الواصلين، وهي - وإذا اختلفت مواردها وتنوعت مصادرها - فمرجعها إليه، وحقيقتها منه عليه؛ إذ ما صَلّى على محمد إلا محمد ﷺ؛ لأن صلاة العبيد عليه ﷺ صدرت منهم بأمره من صورة اسمه: فميم اسم «محمد» رأس صورة آدم المكرم، وهذا الحكم جارٍ فيما تفرّع من آدم عليه الصلاة والسلام، «فميم» اسمه نطقت بالصلاة، وكذلك كل عبادة صدرت من آدم وبنيه، فإنها بأمره ﷺ ومن صورة اسمه، وبالتحقيق ما صلى على رسول الله ﷺ إلا الله؛ لأنه تعالى صلى عليه بنفسه أو بفعله مع أنا لا نلغي الوسائط في الظاهر بل نثبتها ونقرها.

وهذه الإشارة التي أشرنا إليها والتنبيه الذي نبهنا عليه في كون الصلاة عليه ﷺ صدرت من صورة اسمه عليه لم نُسبق إليه، ولا رأيت أحدًا ممن تقدم نبه عليه ولا أشار إليه، إنما هو إلهام ألهِمتُه عند الحضور في ورد الصلاة عليه ﷺ وحين جلوسي في حضرة الحُبِّ على بساط القرب . انتهى.

وقال شارح «الدلائل»: وفي حدائق الأنوار في الصلاة والسلام على النبي المختار ﷺ الحديقة الخامسة في الثمرات التي يجتنيها العبد بالصلاة على النبي ﷺ، والفوائد التي يكتسبها ويقتنيها، ثم سرد اثنتين وأربعين فائدة، ثم قال: ويأتي للمؤلف أن الصلاة على النبي ﷺ

تكسب الأزواج والقصور أيضًا، ويأتي في الحديث: «أنها تعدل عتق الرقاب»[1]. انتهى.

وقال سيدي أحمد بن عطاء الله السكندري ﷺ في «مفتاح الفلاح في ذكر الله الكريم الفتاح»: واعلم أن الذكر على قسمين: ذكر لا يتضمن المناجاة، وذكر يتضمنها وهو أبلغ وأشد تأثيرًا في قلب المبتدئ من الذكر الذي لا يتضمن المناجاة؛ لأن المناجي يشعر قلبه قرب من يناجيه، وذلك مما يؤثر في قلبه ويلبسه الخشية، فإن قوله: «اللّهم صلِّ» ذكرٌ ومناجاة؛ لأنه يسأل الصلاة وذلك مناجاة، ولا تكون إلا لحاضر أنت بين يديه، ولعل سر مشروعية الصلاة على الأنبياء أن رُوح الإنسان ضعيفة لا تستعد لقبول الأنوار الإلهية، فإذا استحكمت العلاقة بين رُوحه ورُوح الأنبياء بالصلاة، فالأنوار الفائضة من عالم الغيب على أرواح الأنبياء تنعكس على أرواح المصلين عليهم. انتهى.

ومن الفوائد المأثورة عن أهل الخواص من الخواص وخواص الخواص: أن من صلى على النبي ﷺ كل ليلة ألف مرة كثرت رؤيته للنبي ﷺ، ومن ذكر اسمه «محمدًا» كل ليلة اثنتين وعشرين مرة كثرت رؤيته له ﷺ.

فإن قلت: لِمَ أجمع الأشياخ على تلقين[2] المريدين ذكر: لا إله إلا الله والله وهو وغير ذلك من الأسماء، ولم يلقنوا المريد الصلاة والتسليم على الحبيب العظيم؟

قلنا: الجواب ما قاله الشعراني ﷺ في «مدارج السالكين» وهو: ثم اعلم يا أخي أن مثال جلاء ذكر الله لصدأ القلوب مثل الحصى للنحاس المصدي، ومثال غير جلاء الذكر من سائر القربات مثل جلاء النحاس المصدي بالصابون، فأين الجلاء من الجلاء؟ فهذا سبب إجماع المشايخ المتقدمين والمتأخرين على أمر المريد بالذكر دون غيره، وكان ذلك منهم نصحًا وتقريبًا للطريق على المريدين. انتهى.

فإن قلت: أليست الصلاة على النبي ﷺ تغني عن المرشد وغيرها ليس له هذا الحكم؟

---

(١) قلت: في محاسن الأخبار في فضل الصلاة على النبي المختار ذكرها صاحبها فائدة في فضل الصلاة على النبي ﷺ.

(٢) في الأصل: (تلقن).

قلنا: بلى[١]، لكن الذكر بلا إله إلا الله – مثلاً – مع وجود المرشد يكشف للمريد به في أسبوع، والصلاة بدونه يكشف له بها لكن بعد سنة، والمقصود سلوك الطريق الأقرب، وهي مع وجوده إذا كانت عن أمره أقرب؛ لأنه لا يأمر المريد إلا بما هو أنفع له؛ ولذا قيل: يؤمر المريد المسرف على نفسه أولاً بالاستغفار، ثم بالصلاة والتسليم على السيد المختار، ثم يلقّن بعدها الأذكار؛ ليكون قد تنوّر قلبه وأشرق لُبّه، فيستيقظ من سِنَة النوم، وينصبغ بحلية القوم، والطرائق بعدد أنفاس الخلائق، لكن طريق الاشتغال بذكر الله مع جَمع الهمّ والقلب على الله وحسن الأدب في الالتجاء إلى الله، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى.

ثم قال: (**عَلَى مَنْ مِنْهُ**)[٢] أي: الذي منه، أي: من فرط ظهور أسراره في سائر أحواله وأطواره، وأراد به السند الأعظم، والسيد الأفخم؛ لأنه هو الذي منه (**انْشَقَّتِ الأَسْرَارُ**)[٣] أي: اتضحت غيوبها، وانفتقت جيوبها، والأسرار: جمع سر، وهو في الاصطلاح: لطيفة مودعة في القلب[٤] كالروح في البدن، وهو محل المشاهدة، كما أن الرُّوحَ محلُّ المحبةِ، والقلب محل المعرفة.

---

(١) في الأصل: (نعم).

(٢) قال المصنف: أي على الذي منه- أي: من ضياء شمس وجوده، ونور قمر وروده، أو من ذاته التي هي أصل الذوات الخلقية، وصفاته المستمدة من الصفات الحقية، وأراد به الإمام الأعظم، والهمام المقدام الأفخم، سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وشَرُفَ، وعَظُمَ وكَرُم المخاطبُ، بـ:«**لولاك لما خلقت الأفلاك**». وهو مداوي الكلوم بالفهوم والعلوم لسائر الأرواح والممالك والأملاك

(٣) قال المصنف: أي: انفتق رتق جيوبها، وانرتق فتق غيوبها أو انفصل موصول حجابها واتصل مفصول لبابها، أو انفتح بابها المغلق، واتضح خفي سرِّها المعلق، والأسرار جمع سر.

والسر في الاصطلاح على ما ذكره سيدي محيي الدين -قدس الله سره- يطلق فيقال: سر العلم بأن حقيقة العَالم به، وسر الحال بإزاء معرفة مراد الله فيه، وسر الحقيقة بإزاء ما تقع به الإشارة من الروح.

واعلم أن السر عند الطائفة على ثلاث مراتب: سر العلم، وسر الحال، وسرَّ الحقيقة ثم تكلم على هذه الأسرار بما يمحق الأستار ولم يبق في عين الجواب غبار، فراجعه، وإنما انشقت منه الأسرار لأنه كثَّر ينبوعها، وجُعِلَ رمز مجموعها، ومحتد أصولها وفروعها، وأُنس وجودها، وقدس شهودها. والأسرار تنقسم إلى ذاتية وصفاتية وأسمائية، وأفعالية، وعنه انشق قمرها، وأينع ثمرها.

(٤) في الأصل (القالب).

وقال القشيري ﷺ: وقالوا: السَّر ما لك عليه إشراف، وسر السر ما لا اطلاع عليه لغير الحق، وعند القوم على موجب مواضعهم ومقتضى أصولهم: السر ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب. ويقولون: الأسرار مُعتنقة عن رِقِّ الأغيار وعن الآثار والأطلال، ويطلق لفظ السر على ما يكون مَصونًا مكتومًا بين العبد والحق تعالى في الأحوال، وعليه يُحمل قول من قال: «أسرارنا بِكْر لم يفتضها وهم واهم».

ويقولون: صدور الأحرار قبور الأسرار. وقالوا: لو عرف زِرّي سرّي لطرحته. انتهى.

(**وانْفَلَقَتِ الأَنوارُ**) أي: ومنه استبانت الأنوار، جمع: نور، وهو الضياء، وفرّق بعضهم بين الضياء والنور بأن الضياء ما أنار بالذات، والنور ما ضاء بالعَرَض، قال الله تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا** ﴾ [يونس:٥] فنور القمر مستمد من نور الشمس عند المقابلة.

وقال السيد الشريف في «التعاريف»: والنور كيفيةٌ تدركها الباصرة أولاً، وبواسطتها سائر المُبْصَرات.

وقال سيدي أحمد زروق: الأنوار التجليات العرفانية، والواردات الإلهية التي ينكشف بها الحق والباطل عند تجليها، فتكون مطايا القلوب إلى حضرة عالم الغيوب، ومطايا الأسرار إلى حضرة الملك الجبار. انتهى.

وإنما كان انشقاق الأسرار منه؛ لأن ما من سرّ ظهر أو سيظهر إلا عن واسطته، جَهِلَ ذلك من جَهِلَهُ وعَلَمِه من علمه؛ فهو سر الأسرار، ونور الأنوارِ، ولهذا كان انفلاقها منه، وفي الحديث: «**أول ما خلق الله نوري، ومن نوري خلقَ كل شيء**»(١).

وعنه ﷺ يخاطب جابرًا ﷺ: «**إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره**»(٢).

قال شارح «الدلائل»: وأما اسمه ﷺ (نور) فقال تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ**﴾ [المائدة:١٥] قيل: محمد ﷺ، وقيل: القرآن، فهو ﷺ نور الله الذي لا يُطفأ ﴿**وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن**

(١) ذكره القرطبي (١٢/ ٢٨٦)، وقد أورد جمعٌ غفير من أهل العلم والسادة لا يحصون عددًا.
(٢) سيأتي تخريجه.

﴿يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة:٣٢]. ولا يشكل على تفسيره بالنبي ﷺ إفراد الضمير بعده في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَه﴾ [المائدة:١٦] مع تغايرهما وعطفهما بالواو دون (أو) كما قيل؛ لأن الضمير راجع إليهما معًا باعتبار المذكور أولاً فهما كالشيء الواحد وهداية أحدهما عين هداية الآخر.

وقد صرَّح الفراء في تفسيره بجواز مثله جوازًا مطردًا، وبه ورد القرآن في آيات كثيرة.

وقال الله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

قال كعب وابن جبير وسهل بن عبد الله: المراد بالنور الثاني هو محمد ﷺ، فقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي نور محمد ﷺ، وحقيقة النور هو الظاهر بنفسه، المظهر لغيره. انتهى.

وهو أصل الأصول، ووصل الوصول، والإمام المقدم على كل من تقدم، وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ: «**كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد**»(١).

وبقوله ﷺ: «**أنا سيّد الناس يوم القيامة**»(٢). وبقوله ﷺ: «**أنا سيّد العالمين**»(٣).

وهو كما قال سيدي محمد البكري ﷺ في «صلواته النبوية»: عبد الله ونِعْم العبد الذي به كمال الكمال، وعابد الله بالله بلا حلول ولا اتحاد ولا اتصال ولا انفصال، الداعي إلى الله على صراط مستقيم، نبي الأنبياء ومحمد الرسل، عليه بالذات وعليهم منه أفضل الصلاة وأشرف التسليم، فقوله: «نبي الأنبياء»، يشير إلى أنهم نوّابه وخلفاؤه، وهو الدَّاعي على الحقيقة من الابتداء إلى الانتهاء.

قال شارح «الدلائل»: قال الشيخ أبو محمد عبد الجليل القصري في «شعبه»: فقد أعلمك ﷺ يعني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ في عبارة طويلة له سردها أن النبي ﷺ

---

(١) رواه الترمذي(٥/ ٥٨٥)، وأحمد (٤/ ٦٦).

(٢) رواه مسلم (١٩٤)، والبخاري (٤٤٣٥).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٠٣).

عقدت له النبوة قبل كل شيء، وأنه دعا الخليقة عند خلق الأرواح وبداء الأنوار إلى الله تعالى، كما دعاهم آخرًا في خلقة جسده آخر الزمان، ومن هذا المعنى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١]، فقد آمن به الكل فهو آدم الأرواح ويعسوبها، كما أن آدم أبو الأجساد وسببها، ثم انظر إلى قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، والعالمون هم جمع الخليقة، فقد أنذر الخليقة أجمع، وآمن الكل به في الأولية والأخروية، وانتقال النور في جميع العالم من صُلب على صُلب فافهم. انتهى.

وقد تكلّم الشيخ تقي الدين السبكي على هذا المعنى وقرره، ثم قال: وبهذا بان لنا معنى حديثين كانا قد خفَيا عنا، أحدهما: قوله ﷺ: «**بُعثتُ إلى الناس كافة**»(١) كنا نظن أنه من زمانه إلى يوم القيامة، فبان أنه جميع الناس أولهم وآخرهم.

والثاني: قوله ﷺ «**كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد**»(٢) كنا نظن أنه بالعلم، فبان أنه زائد على ذلك انتهى.

قال: وقال الشيخ أبو عثمان الفرغاني: فلم يكن داع حقيقي من الابتداء على الانتهاء إلا هذه الحقيقة الأحمدية التي هي أصلُ جميع الأنبياء، وهم كالأجزاء والتفاصيل لحقيقته، فكانت دعوتهم من حيث جزئيتهم عن خلافة من كلّهم لبعض أجزائه، وكانت دعوته دعوة الكلّ لجميع أجزائه إلى كليته، والإشارة على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، والأنبياء والرسل وجميع المتقدمين والمتأخرين داخلون في كافة الناس، فكان هو داعيًا بالأصالة، وجميع الأنبياء والرسل يدعون الخلق إلى الحق عن تبعيته ﷺ فكانوا خلفاءه ونوّابه في الدعوة. انتهى، وفي «البردة»:

وكــلُّ آيٍ أتــى الرســلُ الكــرامُ بهــا ... فــإنما اتــصلتْ مــن نــورِهِ بِهِــمُ

فإنــه شــمسُ فــضلٍ هــم كواكبُهــا ... يُظهــرن أنوارَهــا للنــاس في الظُّلَــمِ

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٦٨).

(٢) تقدم تخريجه.

والشيخ عبد الجليل هو السابق على كل هؤلاء، انتهى.

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالى - في «شرح الهمزية» عند قوله:

أنـــت مـــصباحُ كـــلِّ فـــضلٍ فـــما تَـــصدر إلا عـــن ضـــوئك الأضـــواء

كلّها من الآيات والمعجزات، وسائر المزايا والكرامات، وإن تأخر وجودك عن جميع الأنبياء؛ لأن نور نبوتك متقدم عليهم، بل وعلى جميع المخلوقات.

وشاهده حديث عبد الرزاق بسنده عن جابر ﷺ: «يا رسول الله، أخبرني عن أوَّل شيء خلقه الله قبل الأشياء، قال ﷺ: «**يا جابر إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى، ولم يكن في ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جنّ ولا إنس، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق قسّم ذلكَ النورَ أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول: القلم، ومن الثاني: اللوح، ومن الثالث: العرش، ثم قسَّم الجزء الرابع أربعة أجزاء فخلق من الجزء الأول: حملة العرش، ومن الثاني: الكرسي، ومن الثالث: باقي الملائكة، ثم قَسّم الجزء الرابع أربعة أجزاء: فخلق من الجزء الأول: السماوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث: الجنة والنار، ثم قسم الجزء الرابع أربعة أجزاء: فخلق من الأول نور البصائر المؤمنين، ومن الثاني: نور قلوبهم وهي المعرفة بالله تعالى، ومن الثالث: نور أنسهم وهو التوحيد لا إله إلا الله، محمد رسول الله..** »[1] الحديث. وصَحَّ حديث: «**أول ما خلق الله تعالى القلم**»[2].

وجاء بأسانيد متعددة أن الله لم يخلق شيء قبله، ولا ينافيان ما في الأول في نور نبينا ﷺ؛ لأن الأولية في غيره نسبية وفيه حقيقة فلا تعارض.

وفي حديث عند ابن القطان: «**كنت نورًا بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام**»[3].

وفي الخبر: «**لما خلق الله تعالى آدم جعل ذلك النور في ظهره فكان يلمع في جبهته فيغلب**

---

(١) رواه عبد الرزاق بسنده في الجزء المفقود من المصنف (١٨).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٢٢٥)،والترمذي (٤/ ٤٥٧).

(٣) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣١٢).

على سائر نوره... »[1] الحديث.

وصحَّ حديث: «متى كنت أو كتبت نبيًا؟ قال: **وآدم بين الروح والجسد**»[2].

وليس المراد من ذلك التقدير؛ لأن غيره كذلك بل الإشارة إلى كون روحه العلية ثبت لها ذلك الوصف دون غيرها في عالم الأرواح، إذ ورد أن الأرواح خلقت قبل الأجساد بألفي عام.

وفي حديث عبد الرزاق السابق تأييد لما قيل أنه تعالى لما خلق نور نبيه ﷺ أمره أن ينظر إلى نور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فغشيهم من نوره ما أنطقهم الله به وقالوا: يا ربنا، من غشينا نوره؟ فقال: هذا نور محمد بن عبد الله، إن آمنتم به جعلتكم أنبياء، قالوا: آمنا به وبنبوّته، فقال الله تعالى: أشهد عليكم؟ قالوا: نعم، فذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران:٨١] وفي هذه الآية كما قاله التقي السبكي من التنويه بقدره العلي ما لا يخفى فيها مع ذلك على أنه تقدير مجيئه يكون مرسلاً إليهم وإلى أممهم، فتكون رسالته عامة لجميع الخلق فهو نبي الأنبياء، ولذا كانوا كلهم يوم القيامة تحت لوائه ﷺ. انتهى.

فما انشقت الأسرار إلا من انشقاق قمر ظهوره، ولا انفلقت الأنوار إلا عن انفلاق بحر رفع ستوره؛ إذ هو سر حقيقة قبضة النور والدرة البيضاء، والفيض الأقدسي الكلي الذي فاضت منه الحقائق فيضًا، وعنه ظهرت مراتب الوجود وانتظمت في هذه الأسلاك، لأنه المخاطب بقوله: «**لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك**»[3].

وقد حقق سلطان المحققين سيدي محيي الدين -قدس الله سره المتين- على أن كل ما برز من الموجودات فعنه لظهور حقيقته منه، في كتابه «عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب»، بعبارات رشيقة وإشارات دقيقة، فمن أراد العثور على بداء الظهور فلينظر

---

(١) ذكره الشيخ الحلواني في «مواكب ربيع» (ص١٠٧).

(٢) رواه الترمذي(٥/ ٥٨٥)، وأحمد (٤/ ٦٦).

(٣) ذكره القاري في المصنوع (ص١٥٠).

هنالك، سالكًا أحسن المسالك، ولما كان سرُّه السر الألي، ونوره النور الكلي، كان هو السابق اللاحق، والنور الأتم الذي للظلام ماحق، حتى إن حبيبك الشريف الصوري، المنيف اللطيف النوري، الذي حبه على الخلائق فرض، كان لا ظل له يقع على الأرض؛ لأنه نور وافٍ وافر، وظهور سافٍ سافر، وهو النور الظاهر بمظهرية اسمه النور الباهر، فمن أراد طول حضرة النور فليلتج لجنابه، وليقف وقفة الخاضع الذليل ببابه، وليلزم باب اتباعه، لكي يعد من أتباعه، فمن اتبعه أحبه الله وبصّره، ومن أحبه كان سمعه وبصره، فيمشي نورًا بحتًا، وينحت قوافي الأسرار نحتًا، فيكون داعيًا إلى الله على بصيرة، حيث صفت منه السريرة، وصحت البصيرة، ولقد أودعت شرح الوِرد المسمى بـ«الضياء الشمسي على الفتح القدسي»[1] قصيدة في هذا المعنى، وطيب هذا المغنى، وهي:

حضرة النورِ تكسِبُ الأنوارا ... وهو يَمحو من الفتى الآثارا

يدّعي أهلُها التحققَ فيها ... وهي في العزِّ والعُلا لا تجارَى

عبدُها عندُها مقيمٌ يَراها ... حين تجلَّى عليه منًّا جهارًا

تتجلى فيها ملاحُ المعاني ... للمُعاني حتى تريَهُ النّهارا

فيضُها الأقدسي يغني الدِّياجي ... سحبُه في العطا يَفوقُ البحارا

فارمِ ثوبَ الظلامِ عنك لتُكسَى ... حُلةَ النورِ فالظهورُ أنارا

واشهد النور في كل شيءٍ تبدَّى ... عن جمالٍ له أزاحَ الخِمارا

وخذ اللُّب ثم للقشر فاحفظ ... واحتسِ الكأسَ إنْ مدير أدارا

هذه حضرة الهنا والتصابي ... فادخلُوها ثم اكتموا الأسرارا

وإذا ما دخلتُم حماها ... نلتم العِزَّ والمنى والفِخَارا

فاشكروا نعمةَ الإلهِ عليكُمُ ... وأفيضوا من مائكم مدرارا

وأطلقوا للحصير في أرضِ نفسٍ ... ثم فكوا مِنّا قيودَ الأسارى

---

(١) أتم الله لنا تحقيقه.

ثـــم زكّـــوا أمـــوالَ مـــا نلتمُـــوه ... مـــن نـــوالٍ مـــن منـــع ذاك حِـــذارا

وصـــلاةٌ عـــلى الحبيـــبِ التُّهـــامي ... مـــا بـــه المـــسرفُ الكئيـــبُ اســـتجارَا

وســـلام عليـــهِ في كـــلِّ وقـــتٍ ... مَـــا بـــدا سرٌ وسرٌ تـــوارَى

وعـــلى آلـــهِ وصـــحبٍ كـــرامٍ ... قـــد محـــا عـــنهم المنـــى الأوزارا

ولنذكر عبارة الشارح بتمامِها؛ لينشق السارح زهر كمامها، قال: وقوله: «على من منه انشقت الأسرار وانفقلت الأنوار» يريد به سيدنا ومولانا محمدًا ﷺ، والأسرار: جمع سر، والمراد بها أسرار الذات وأسرار الصفات وأسرار الأفعال، فهذه الأسرار كلُّها كانت مبطنة تجلى عليها من اسمه الباطن، فحجب عنها خلقه بنور كبريائه، فكانت كذلك حتى جاء ﷺ فحواها باسمه تعالى الظاهر، وأظهرها باسمه المبين، ورفع عن سائر المؤمنين الحجاب، فظهرت الأسرار لائحة الأنوار بادية الأسرار، فكان ﷺ هو المظهر لها، وكاشف الحجاب عنها، بنوره ظهرت الأسرار، وبسرِّه أشرقت الأنوار، والمراد بالأنوار: الأنوار الإيمانية التي أشرقت على قلوب المؤمنين، وقد كانت قبل بعثته مستورة بظُلم الكفر ودخان الشرك، فلما جاء النور المحمدي أشرقت في سماء قلوب من أراد الله تعالى هدايته فكشف عنها ظلم الكفر، وأشرق فيها نور الإيمان، فكان النور المحمدي هو المزيل عن قلوب المؤمنين ظلم الكفر، والكاشف عنها دخان الشرك، والمشرق بها نور الإيمان[1].

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ في «التصلية» بقوله: «منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، ومنه ظهرت وعنه صدرت، فمنه مبدؤها وعنه مصدرها».

وما قلناه: من انكشاف الأسرار فذلك بحسب المقامات، فكل ذي مقام ينكشف له من الأسرار ما يليق بمقامه، فأهل مقام الإسلام إذا تحققوا فيه وقاموا بوظائفه، وداموا على

---

(١) وقال المصنف: والأنوار على أقسام: أنوار ربانية، وأنوار روحانية، وأنوار سماوية وصفاتية، وذاتية، وأنوار طبيعية، وأنوار وجهاتية، وأنوار عَليَّة وسُفليَّة، وعينية وغيبية، وغير ذلك من الأنوار السنية، والأقسام الجلية، وكلها مُفاضة من النور الأول وحقيقة الأواخر، والأوّل، والمكَنَّى عنه بالقلم الأعلى والعقل الأول، وقد يُكنَّى عن ذاته الشريفة التي تفيض بالأنوار والأسرار فيضًا بالجوهرة، والقبَّة الخضراء، والدرَّة البيضاء.

الذكر الخاص به، وتحلوا بمعنى ذلك الذكر تحلية تثمر معها ثمراته، وتحصل لهم معها نتائجه، وانكشفت لهم أسرار الأفعال، ويكون لهم هذا الكشف سلَّمًا إلى كشف أسرار الصفات، وذلك عند انتقالهم من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان، فإذا ترقوا من ذلك إلى هذا وثبتوا فيه وتحققوا فيه وقاموا بوظائفه وداموا على ذكره الخاص وتحلوا بمعنى ذلك الذكر تحلية تثمر معها ثمراته وتحصل معها نتائجه - انكشف لهم من أسرار الذات ما تسعه عقولهم وتحمله أرواحهم، وذلك رحمة من الله تعالى بهم، ثم إن المكاشفين بهذه الأسرار منهم من انكشفت لهم جملة، ومنهم من انكشفت لهم تفصيلاً، ومنهم من انكشفت لهم جملةً وتفصيلاً، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأعظمهم في ذلك الكشف نبينا محمد ﷺ، وقد كانت هذه الأسرار التوحيدية قبل بعثته ﷺ بحرًا طامًا، وسماءً يابسةً، فبنوره ظهرت، وكانت الأنوار الإيمانية محجوبة بظلم الكفر فبسرِّه أشرقت ﷺ.

وبالجملة: فجميع ما أودع الله سبحانه في مكنوناته من الأسرار فهو ﷺ المُظهِر لها بعد ما كانت القلوب غافلة عنها، والأرواح جاهلة بها، فنبّه ﷺ القلوب لما كانت عنه غافلة، وعلم الأرواح بعد ما كانت به جاهلة. انتهى.

واعلم أن كمال كل إنسان على قدر اتصافه بالكمالات الإلهية، فكلما عظم اتصافه عظم قدره، وتمّم بدره، وكان مظهرًا كاملاً، محمولاً حاملاً، ولا أعظم تعلقًا وتحققًا وتخلقًا بالأسماء الإلهية في أهل هذه النشأة الإنسانية من الأنبياء الكرام عليهم السلام، فكلما زادَ زادُ العلم والعين والحق نما اليقين وسما، ولصاحبه بالسابقين ألحق، ولابد بعد كمال هذا الاتصاف من غلبة اسم على الكامل يكون حكمه غالبًا عليه، وينسب إليه، وعلى قدر سعة هذا الاسم تكون سعة صاحبه، فإن حيطة اسم الرب والملك فوق حيطة الرزاق والغفار والقابض والباسط مثلاً، وحيطة اسم الرحمن أوسع منها، فمن كان الغالب عليه اسم الرحمن كان أعلى مما عداه، ما خلا اسم الله؛ فإنه أعظم حيطةً منه، ولذا كان اسم نبينا ﷺ الغالب عليه الله، والاسم الغالب على الخليل عليه الصلاة والسلام اسم الرحمن، ولذا كان أرفع الأنبياء ما عدا نبينا ﷺ، ومن هنا كان نبينا ﷺ أعظم الخلق وأرفعهم لرفعة حيطة اسمه الغالب عليه، ورجوع سائر الأسماء إليه، فما انفتق سرٌّ إلا منه، ولا انفلق نورٌ إلا عنه؛ لأنه الخليفة على كافة الخليقة، ولا ظهر ما ظهر ولا بطن ما بطن إلا بواسطته.

وإذا حققت النظر وكنت ممن استبصر عرفت من هذا تفاوت مراتب الورثة في القرب،

وأفضلية الإنسان والأماكن، وعلمت أن مرجع ذلك إلى عظم الاسم المنجلي به على العبد والزمان والمكان، وعرفت سر الاختلاف والاتفاق، فإن أثر تجلي اسم المعطي يضاد المانع، وسر التنازع الحاصل بين أهل القرب فإنه من تنازع الأسماء، والغلبة لمن حيطة اسمه أكبر أثرًا، وقد تكون للثاني لسر القضاء والقدر، والله يرزقنا وإياك حسن الفهم والتسليم لنخلص من ورطة الاعتراض الذميم.

ثم قال رحمه الله تعالى: **(وَفِيهِ ارْتَقَت الْحَقَائِقُ وَتَنَزَّلَتْ عُلُومُ آدَمَ فَأَعْجَزَ الْخَلَائِقَ، وَلَهُ تَضَاءَلَتِ الْفُهُومُ فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا سَابِقٌ وَلَا لَاحِقٌ، فَرِيَاضُ الْمَلَكُوتِ بِزَهْرِ جَمَالِهِ مُونِقَةٌ، وَحِيَاضُ الْجَبَرُوتِ بِفَيْضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَةٌ، وَلَا شَيْءَ إِلَّا وَهُوَ بِهِ مَنُوطٌ إِذْ لَوْلَا الوَاسِطَةُ لَذَهَبَ كَمَا قِيلَ الْمَوْسُوطُ، صَلَاةً تَلِيقُ بِكَ مِنْكَ إِلَيْهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ)**.

(وفيه) [1] أي: وفي إمداده ﷺ **(ارتقت)** [2] أو ارتفعت لانتسابها له، واستمدادها منه **(الحقائق)** [3] جمع: حقيقة، وهي من حق إذا ثبت، وحقيقة كل شيء ذاته.

(١) قال المصنف: أي وفي ظهوره ﷺ من حضرة الغيب إلى حضرة العين، وتعيُّنه الأوَّل الذي خصَّ به محمدٌ كل عين، وجعله نور عين كل عين.

(٢) قال المصنف: أي: عَلَتْ وارتفعت به من منـزل العدم إلى رتبة الوجود الحقائق الكيانية الغيبية والشهادية، والحقائق جمع حقيقة، وهي من حقَّ إذا ثَبُتَ، وحقيقةُ الشيء ذاته.

(٣) **وقال**: لأنه ممدها من الأزل إلى الأبد، وواسطتها في فيض إمداد الأحد، وبسريان إمداده فيها ارتقت ظواهرها وخوافيها، وصورة سريان إمداده الخفي كصورة سريان حرف الألف في سائر الحروف، والجلي منه كصورة رسمها المعروف وبين حرف الألف، وبين سيد العالم ﷺ مناسبة من حيث إنه أول الحروف وهو ﷺ أول الموجودات، ومن حيث قيام سائر الحروف به فهو كقيام سائر الحقائق بمدده المستمد منه.

قال العارف الهمام سيدي عبد الكريم الجيلي - قدس الله سره - في كتابه «حقيقة الحقائق» التي هي للحق من وجه، ومن وجه للخلائق: اعلم - وفقك الله - أن الألف له الأوليَّة في المراتب، وهو أول حرف ظهر من النقطة، وله مرتبة الإبداع، والناظر إليه في هذه المرتبة من أسماء الله (البديع)، فنسبته من الوجود نسبة القلم الأعلى، فكما أن القلم هو أوَّل مخلوق، كذلك الألف هو أول الحروف فمثاله مثال الحقيقة المحمدية التي لها الأولية في الحقائق بحكم الأصالة، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: «**أوّل ما خلق الله رَوحي**». وفي رواية: «**نوري**». فالقلم الأعلى هو عبارة عن الحقيقة المحمدية، كما أن العقل الأول أيضًا عبارة عن هذه الحقيقة الشريفة، وقد قال ﷺ أيضًا: «**أول ما خلق الله العقل**».

فهذه الثلاثة عبارة عن الجوهر الأكبر الذي هو عبارة عن أول التعينات الذاتية في المظاهر الخلقية، فالأولية =

قال في «التعاريف»: حقيقة الشيء ما به الشيء هُوَ هُوَ، كالحيوان الناطق للإنسان، بخلاف مثل الضاحك والكاتب مما يمكن تصور الإنسان بدونه، وقد يقال: أن ما به الشيء هو باعتبار تحققه حقيقة، وباعتبار تشخُّصه هويّة، ومع قطع النظر عن ذلك ماهية. انتهى.

إذ هي تابعة له والتابع يشرف على قدر شرف متبوعه مستمده منه: آخذة عنه، وبذا ارتقت من عالم العدم إلى عالم الوجود، ومن عالم الغفلة والغيبة إلى عالم الحضور والشهود، ومن عالم الحجاب إلى عالم الاقتراب، فعمَّ إمداده، وطمَّ إرشاده، إذ هو الرحمة العامة، والنعمة التامة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فعمت رحمة إرساله للجاهلين والعالمين.

قال سيدي أبو العباس المرسي قدس الله سره: جميع الأنبياء خُلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] انتهى.

ولما كسر المشركون رباعيته يوم أُحد، وجرحوا شفته، وشجّوا جبهته، وهشموا البيضة على رأسه، ورموه بالحجارة حتى سقط لشقه في بعض الحفر، والدم يسيل على وجهه الشريف، كل ذلك في ذلك اليوم، فشقَّ على أصحابه شُقّة شديدة وقالوا له: لو دعوت عليهم، فقال: «**إني لم أُبعث لعَّانًا ولكني بعثت داعيًا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»(١).

قال ابن حجر: أي: اغفر لهم هذا الشيء المخصوص لا مطلقًا، وإلا لأسلموا كلهم، ذكره ابن حبّان.

وإنما دعا عليهم يوم الخندق بأنّ الله يملأ بطونهم نارًا؛ لأنهم شغلوه عن الصلاة الوسطى، فكان الدعاء لله لاحظ نفسه. انتهى.

وحيث ما كان رحمة مرسلة، ونعمة غيوثها مرسلة، ارتقت فيه سائر الحقائق العلوية

=

لهذه الحقيقة بالحكم والأصالة للمرتبة، وتقدم هذا الجوهر على غيره تقدم حُكْمِي رتبي لا تقدم زماني؛ لأن الزمان لم يكن موجودًا في ذلك الوقت الإلهي، فثَمَّ ثم إلا شئون إلهية، اقتضى حكمها في الموجودات تقديمًا وتأخيرًا لما تقتضيه الهوية من حيث المرتبة أصالة حكمية، وهذه مسألة غامضة مضت على الأكثرين، إلخ.

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٠٦).

والسفلية، وانفتق رتق الرقائق الفرضية والنفلية؛ لأنه كشف لها عن الأسرار، وأرشفها خمر العيان بعد رفع الخمار، فألزمها الحجة لمّا بين لها المحجة، فمن أمّهُ وبه اقتدى سعد واهتدى، ومن حاد عن سواء طريقه، حجب عن سنا القرب وبريقه.

وهذا ارتقاء خاص خصت به الخواص، وما قدمناه من الارتقاء من عالم إلى آخر هو العام الشامل للخواص والعوام.

وأيضًا فإن الحقائق لمّا كان ظهورها عن ظهوره، وبدوّ نورها عن بدوّ نوره ارتقت بنسبتها له في الأزل، لكن منها [ما][1] استقام على ارتقائه، ومنها ما هبط ونزل، فكل حقيقة باعتبار أصل الفطرة راقية وصاحبها مرتقي، وباعتبار ما جرى به التقدير الأزلي إما سعيد أو شقي، ففي الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[2].

ولما كان هو الباب الذي منه الولوج، والسلّم الذي بواسطته العروج لم يرتق مرتقٍ إلا بترقّيه، ولم يتلقَّ متلقٍّ إلا عن تلقّيه، ولمّا عَرف الصدِّيق ذلك، واغترف من شراب هذه المسالك قال لابنته الصدِّيقة عند نزول البراءة الوثيقة: «اشكري رسول الله، فقالت: والله لا أشكر إلا الله».

دلّها على المقام الأكمل، فمالت إلى مقام الجمع الأشمل؛ لغيبتها في ذلك المشهد عن هذا المقام الأوحد.

وفي الحديث: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**»[3]. لأن إنكار الوسائط بالنسبة للحجب الزجاجية كالحائط، إذ هي لا ترتفع، وبدونها براقع الفؤاد لا ترتفع؛ فإن ظهور النور والسر المصون بغير مظهر لا يكون، فهو البرزخ الثابت الذي بأثمار الإمداد نابِت، ولو أمكن الوصول بدونها إلى الجميل الجليل ما احتاج الحبيب لواسطة جبريل، وكان له ﷺ طريقان في التلقي: أحدهما في الظاهر، والثاني في الباطن، فالأول عن جبريل عليه السلام، والثاني عن ربه ذي

---

(١) في الأصل (من)

(٢) رواه البخاري (١/ ٤٥٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧).

(٣) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٢)، والترمذي (٤/ ٣٣٩).

الجلال والإكرام، فكان من هذا الطريق يسابق جبريل في القرآن فخاطبه الحق سبحانه بقوله: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]؛ لأن فيها تخجيل الواسطة فقال: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**»(١).

فهو واسطة جبريل باطنًا، وجبريل واسطته ظاهرًا.

قال الجيلي ﷺ في «الإنسان الكامل» في آخر الباب الثالث والخمسين منه: ثم إن العقل الأول المنسوب إلى محمد ﷺ خلق الله جبريل منه في الأزل، وكان محمد ﷺ أبًا لجبريل، وأصلاً لجميع العالم.

فاعلم إن كنت ممن يعلم -فدين من يعلم دين من يعقل- ولهذا وقف عنه جبريل في إسرائه وتقدم وحده، وسُمِّيَ العقل والروح الأمين؛ لأنه خزانة علم الله وأمينه، ويسمى بهذا الاسم جبريل من تسمية الفرع بأصله فافهم، والله تعالى أعلم. انتهى.

فالترقي ليس إلا عن إمداده، والتلقي ليس إلا من إسعافه وإسعاده، فإنه ﷺ ما قُرِّبَ مُقَرَّبٌ إلى مقربٍ قرّبه؛ وقد أقر الكل بالعجز عن الدنو إلى مقام قربه، فالأدنى لا تلقي له إلا عن الأعلى، فمن علم ذلك كان صاحب كشف أغلى، فعلى قدر المسامة لحضرة التقريب يكون الإمداد من الحبيب، فإن من دخل حضرة الإمداد من الأفراد أخبر أن قدم السيد الأكمل يراه فوق رأسه فإذا سامته مسامتة تامة كان من الكمَّل لكمال استعداده، وتمام فيض إمداده، ومن لم يسامته كان له من المدد على قدر قربه من القدم المحمدي الشريف الذي به حصل التكميل لكل كامل والتشريف لكل شريف.

قال الجيلي -قدس الله سره- في كتابه «لوامع البرق الموهن» في معنى: «**ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن**»(٢) الحضرة التاسعة والثلاثون حضرة التكميل: اعلم، أيّدك الله تعالى، أن العبد يعجز عن تحققه بمقام الكمال المطلق فيكاد أن يفرَّ؛ لأنه يجد الطريق مصمتًا لا منفذ فيه، فيجلي عليه النبي ﷺ بذلك الكمال الذي عجز هذا الولي عن التحقق به، فيصرف الولي كلمة الحضرة إلى النبي ﷺ ويشهده في ذلك الكمال فيقرب من

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠١).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٤٩٦)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/ ٤٣١).

قابليته وفيه من قابلية الولي، فيقوى بواسطته على التحقيق بذلك الكمال، فيكمله النبي ﷺ بأن يتصدق عليه بدوام وبروز رقيقة بعد رقيقة؛ ليكمل في كل مقام ويتقوى به لما يستحق من ذلك المقام، فالتكميل لكل كامل إنما يكون من الحضرة المحمدية، علم ذلك من علمه وجهل ذلك من جهله انتهى.

قال الشارح: **(وفيه ارتقت الحقائق)** أي: أنه ﷺ ارتقت فيه حقائق جميع الأشياء العلوية والسفلية، المعنوية والحسية، اللطيفة والكثيفة، فجميع حقائق هذه ارتقت فيه، وتجلّت في باطنه حتى صار قلبه معدنًا لها، وباطنه مرساها، فقلبه ﷺ معدن الحقائق والأسرار، وباطنه مهبط العلوم والأنوار، وإنما خصَّ قلبه ﷺ بذلك لاتساعه، فما وسعه لا يسعه غيره، فما اجتمع فيه ﷺ افترق في غيره من المرسلين والنبيين والعارفين والصدِّيقين؛ ولهذا قيل: محمد ﷺ جمع فيه ما افترق، وإنما كان قلبه ﷺ معدن الحقائق والأسرار، وباطنه مهبط العلوم والأنوار للمجانسة؛ إذ الحقائق عرشيَّة، والأسرار كرسيَّة، والعلوم لَوحيَّة، والأنوار ملكوتيَّة، وقلبه وباطنه من تلك العوالم العُلوية، والشيء قد يألف الشيء لنسبة بينهما، انتهى.

واعلم أيها المريد للمراد المريد، الطالب المزيد من كل أمر حميد، أنك إذا توجهت بكلِّ كلِّك وذلِّ كلِّك، إلى باب مطلوبك الأعظم، ولُذْتَ بجنابه الأفخم، وكان توجهك كُلِّيًّا جَلِيًّا خَلِيًّا عُدْتَ بالأسرار مليًّا، وبالأنوار غنيًّا، وسرت سيرًا سويًّا، وكنت على حمل أعباء الولاية قويًّا، فإن الطالب عزيزٌ والمطلوب أعزُّ، فمن أقبل ببعضه عليه صعب السلوك وعَزَّ، فأجب بكلِّك داعيَ الحق الأكبر، فإن من سقط عليه فَعَلى الخبير سقط بل على الأخبر، فالإقبال على الداعي بالكُليَّة، يرقِّي الطالب المقامات العليَّة، فكل من أجاب الحق إلى ما دعاه إليه أجابه الحق لكل ما سأل، وأقبل عليه.

ولمّا كان الحبيب الأعظم أسرع مُجيب أجاب كمال الإجابة رفع الحق مقداره وأعلى مناره، وأجاب سؤاله وعمَّم الاستجابة، وكان بعض من يرى سرعة إجابة الحق لدعائه يقول: إن الله يحب محمدًا؛ لا يدعوه إلا ويجيبه، فهكذا صدق التوجه الكليِّ يورث الإجابة من الوليِّ العليِّ، فمن رام دوام الترقي في المقامات العلية فليُقبل على الذات المحمدية، فإن بها الترقي إلى حضرات المعرفة والمنازل المشَرَّفة المشْرِفة، ومن ادَّعى الوصول من غير باب الرسول، فهو جاهل بل جهول، واقع في مهمة مهولة.

قال سيدي محمد البكري -قدس الله سره- في «صلواته النبوية»: المحكوم بالجهل على كل من ادَّعى معرفة الله مجردة في نفس الأمر عن نَفَسِهِ المحمدي، وإذا كانت الأسباب الدنيوية الخسيسة يحتاج فيها إلى وسائط ولا ننكر ذلك، فكيف بالأمور الأخروية النفسية؟ وطريق معرفة الله وحبه والقرب منه، والتجرد عن الشواغل الظاهرة والباطنة المبعدة عنه، أعز الطرق وأسناها، وأبهرها وأبهاها، فكيف تسلك بدون واسطة ودليل؟ والمهام كثيرة، والرِّجْل حافية، والأمور خافية، والخطر جليل! قال العارف:

لا تَسلكَنَّ طريقًا لستَ تعرِفُهُ بلا دليلٍ فتهوَى في مهاويها

فاتخاذ الأدلة للعارفين بالطريق والوسائط من أعظم الوسائل لا سيِّما من كل بناء الحائط، فإنه واسطة كل واسطة مقدام، وإمام كل إمام في كل حال ومقام، فمن أخذ عن واسطته وهو يشهد أنه مرآة قابلة للتلقي من الإمداد المحمدي، وربما شاهد النور الأحمديّ عيانًا، وأخذ عنه بواسطة مظهرية شيخه كشفًا وإيقانًا، كما وقع ذلك للجيلي الداني، وأمر بشهود ذلك الشبلي مريده العاني، فافهم، سلك الله بنا وبك طريق السلامة، بجاه صاحب العمامة والغمامة.

ثم قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: (وَتَنَزَّلَتْ عُلُومُ آدَمَ)[1] قال في «المختار»: التنزُّل:

---

(١) أي: بسببه عليه، ووصلت لأهل هذا العالم أو تنزلت العلوم الأسمائية من أبيه عليه، ورأته ظاهرية بعد تنزلها منه على أبيه إفاضة باطنية، وعلوم آدم عليه السلام هي علوم الأسماء التي نال بها التقدم على الملائكة.
قال سيدي محيي الدين -قدس الله سرَّه- في الباب الثالث والسبعين من «فتوحاته» في فصل أجوبة الترمذي.
السؤال الخامس والأربعون: بأي شيءٍ نال التقدمة على الملائكة ؟
الجواب: إن الله قد بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] يعني: الأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاد حقائق الأكوان، ومن جملتها الأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاد حقائق الملائكة ولا تعرفها، ثم أقام السميين بهذه الأسماء، وهي التجليات الإلهية التي هي للأسماء كالمواد الصُّورية للأرواح، فقال للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة:٣١] يعني: الصور التي تجلى فيها الحق ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٣١] في قولكم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة:٣٠]، وهل سبحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجليَّات التي أتجلى بها لعبادي، وإن كنتم صادقين في قولكم: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠] ذواتنا عن الجهل بك، فهل قدَّستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجليات الإلهية، وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبحوني بها، فقال الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ فمن علمهم بالله ما أضافوا التعليم إلا إليه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما لا نعلمه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢] بترتيب الأشياء في مراتبها، فأعطيت هذا الخليفة، ما لم تعطنا مما غاب عنَّا، فلولا أن رتبة نشأته تعطي ذلك ما أعطت الحكمة أن يكون له هذا العلم الذي خصصته به دوننا، وهو بشر فقال الله =

النـزول في مهلة انتهى.

والعلوم: جمع: علم، قال في «المصباح المنير»: علمته علمًا: عرفته، هكذا يفسرون العلم بالمعرفة وبالعكس؛ لتقارب المعنيين، وهو أن كل واحد لا يكون إلا بعد سبق الجهل.

قال الواحدي: والعلم يكون معرفة لقوله تعالى: ﴿لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

وقد قيل في الفرق: إن العلم يكون بالكَسْب، والمعرفة بالجبلَّة؛ ولهذا تكون المعرفة في البهائم دون العلم، وفي التنـزيل: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا ﴾ [البقرة:٨٩] أي: علموا.

=

تعالى: ﴿أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣] أي: بأسماء هؤلاء الذين عرضناهم عليهم، فأنبأ آدم بأسماء تلك التجليّات، وكانت على عدد ما في نشأة آدم من الحقائق الإلهية التي تقتضيها التجليات الإلهية، مما ليس من ذلك وغيره من الملائكة شيء فكان أولئك المسمُّون المعروضون على الملائكة تجليّات إلهية في صورة ما في آدم من الحقائق، فأولئك هم عالم آدم كلهم فلمّا علَّمهم آدم ﷺ قال لهم الله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة:٣٣] وهو ما علا من علم الغيوب، و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وهو ما في الطبيعة من الأسرار، و﴿أَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: ما هو في الأمور ظاهر، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي: تخفونه على أنه باطن مستور، فما علمتكم أنه أمر نسبي بل هو ظاهر لمن يعلمه، ثم قال لهم بعد التعليم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِأَدَمَ﴾ [البقرة:٣٤] سجود المتعلمين للمعلِّم من أجل ما علمهم، فلام آدم هنا لام العلة والسبب أي: من أجل آدم، فالسجود لله من أجل آدم سجود شكر لما علَّمهم الله من العلم به، ومما خلقه في آدم ﷺ فعلموا ما لم يكونوا يعلمون. فقال: التقدمة عليهم فهو أستاذهم في هذه المسألة، وقال في كتاب «العبادلة»: سجدت الملائكة لآدم لموضع اللام من قوله: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِأَدَمَ﴾ [البقرة:٣٤] ومن أجل موضع اللام، وقع التقرير على إبليس في: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥] فما ذكر آدم في السجود تصريحًا ولا كناية إلا والله معه، فعلمت الملائكة ما جهل إبليس، انتهى. ثم قال: وبعده، فما ظهر ت هذه الحقيقة في أحد من البشر إلا في محمد ﷺ، فقال ﷺ عن نفسه: «**أنه أوتي جوامع الكلم**». وهو قوله تعالى في حق آدم ﷺ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١] فـ﴿كُلَّهَا﴾ بمنزلة «الجوامع»، و«الكلم» بمنزلة ﴿ٱلْأَسْمَآءَ﴾. وناله التقدمة بها وبالصورة التي خلقه الله عليها. قال ﷺ: «**إنّ الله خلق آدم على صورته**». بالنشأة من أجل اليدين، وجعله بالخلافة على صورته وهي المنـزلة، فأعطته الصورتان التقدم حيث لم يكن ذلك لغيره من المخلوقات، وليس فوق هذه المنـزلة منـزلة لمخلوق، فلابد أن يكون له التقدمة على مَن سواه، وكذلك الأمر الذي أعطاه هذا يتقدم على جميع الأمور كلها، انتهى.

قال زهير:

وأعلـــم علـــم اليـــوم والأمـــس قبلـــه ولكننـــي عـــن علـــم مـــا في غـــدٍ عـــمِ

وقال الشبلي أيضًا: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] يعرفهم.

قال: فإن قلت: لا تطلق المعرفة على الله تعالى؛ لأنها توهم سابقة الجهل.

قلت: سابقة الجهل إنما تكون فيمن يصح عليه الجهل، وإذا كانت عَلِمَ بمعنى اليقين تعدّت إلى مفعولين، وإذا كانت بمعنى عرف تعدَّت إلى مفعول، وقد تزاد الباء في المفعول فيقال: علمت به، وأعلمته الخبر، وعلمته الفاتحة والصنعة وغير ذلك تعليمًا فتعلم ذلك، والأيام المعلومة عشر ذي الحجة. انتهى.

وقال السيد في «التعاريف»: العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع.

وقال الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل، والأول أخصّ من الثاني. انتهى.

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالى- عند قول الأبوصيري: لك ذات العلوم جمع علم، وهو هنا صفة ينجلي بها المذكور لمن قامت به انجلاءً تامًا، والإدراك الجازم الذي لا يحتمل النقيض، وحُدَّ بحدود أُخَر كلها مدخولة أيضًا، ويرادفه المعرفة لكن لا يقال لله عارف؛ لأنها تستدعي سبق جهل، بخلاف العلم واليقين.

لكن فرق بينهما بعض المحققين بأن: اليقين خاص بما من شأنه أن يتطرق إليه شك، فلا يقال: تيقنت أن الواحد نصف اثنين.

وقال الراغب: اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال: علم اليقين، ولا يقال: معرفة اليقين.

وهو سكون النفس مع ثبات الحكم حال كونها واصلة إليك على لسان الملك، أو بالإلقاء في الروع، أو بخلق العلم الضروري، أو بسماع الكلام النفسي، انتهى.

واعلم أن أصول العلوم على ما قاله بعض أهل الفهوم، مائة ألف علم أو أكثر، وأما الفروع فلا تحصر، وهي من حيث هي منقسمة إلى قسمين: علم درسي، وعلم نفسي، والأول علم الطروس، والثاني علم الصدور المحروس، والأول: سفيره الإفهام، والثاني: الإلهام، والأول: كسبي، والثاني: وهبي، والأول: طريق الجِدّ والعناء، والثاني: الغيبة والفناء، والأول: حُجة والثاني: مَحجة، لقوله ﷺ: «**العلم علمان: فعلم في القلب، فذلك العلم النافع،**

وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم» [1] كذا في «الجامع الصغير».

والأول: لا يستغنى فيه عن الوسائط الجمَّة، والثاني: ربما يستغنى فيه عنها آخرًا بعد رفع الحجب المدلّهمة، أو تَقِل، فيقول الذي قلَّت وسائطه: حدثني قلبي عن ربي، ويقول الذي استغنى عنها: حدثني ربي، أي: بطريق الإلهام.

قال أبو يزيد قدس الله سرَّه: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

وأنشد سيدي عمر بن الفارض -قدس الله سره-:

ولا تـــك ممـــن طيّـــشتْه دروسُـــهُ ... بحيـــث اســـتقلت عقلَـــه واســـتفزتِ

فـــثَمَّ وراء النقـــل علـــمٌ يَـــدِقّ عـــن ... مـــدارِكِ غايـــاتِ العقـــولِ الـــسليمةِ

تلقيتَـــهُ منّـــي وعنـــي أخذتَـــه ... ونفـــسي كانـــت مـــن عطـــائي مُمِـــدّتي

ثم العلم على قسمين من حيث أصل تقسيمه: قديم وحادث، فالقديم هو: الصفة الكاشفة القديمة المتعلقة بالواجبات والجائزات والمستحيلات، والحادث هو: ما أفاضه الحق وجاد به على عباده متنوعًا متكثرًا مجملاً ومفصلاً، وما يفيضه عليهم دنيا وأخرى، فإن فيض الحق لا ينقطع أبدًا، وهذا العلم، وإن حصل منه عندنا فنسبته إلينا مجازية وإليه حقيقية، لأنّا بالنظر لأنفسنا لا علم لنا، وبالنظر لتعليمه كما قال تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء:١١٣] فلنا علم، ولما كان الأمر كذلك قال الله تعالى: ﴿ **وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النور :١٩].

وهذه العلوم منها ما هو من العلوم الشهودية، ومنها ما هو من العلوم الوجودية، ومنها حسية معنوية، وشرعية وعقلية، وعرشية وفرشية، وجلالية وجمالية، ودنيوية وبرزخية ونشرية وحشرية وأخروية، وكسبية وفعلية، وأسمائية وصفاتية وذاتية، وغيبية وعينية، وملكية وملكوتية، وجبروتية لاهوتية، وغير ذلك من العلوم التي لا تتناهى.

وكل واحد من هذه العلوم له مراتب في ظهوره وبدوّ نوره، ففي أول الظهور قبل

---

(١) رواه الدارمي (١/ ١١٦).

المعاينة يسمى: علم يقين، وبعدها: علم عين اليقين، وبعد التحقيق فيه، والاطلاع على ظواهره وخوافيه يسمى: علم حق اليقين.

ومع كثرة العلوم وتشعب الفهوم، عند أهل الكشف وأهل الرسوم قال الله الحي القيوم: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

فانظر هذا الخطاب الذي عمَّ نظرًا جميلاً، وقول الخضر عليه السلام لموسى الكليم عليه السلام: ما أخذت أنا وأنت من علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر – أو ما معناه- تنمحق دعاويك الباطلة، وتنسحق مساويك العاطلة.

واعلم أن العلوم الربانية، والأسرار الرحمانية فيضها عجيب، وسرُّها غريب، لا تدرك إلا من طريق الذوق والوجدان، ولا تعرف إلا بعد المشاهدة والعيان، فقد يُفتح على العبد المعتنى به في لحظة واحدة ما لو جلس يقرر فيه مدة عمره ما وفى به؛ إذ فيض الحق سبحانه وتعالى لا يقاس بغيره، فإنه فيض واسع من واسع، عم الأنام ببره وخيره.

قال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في كتابه «روح القدس في مناصحة النفس»: ولما رأيت الله تعالى قد فتح على قلبي باب الحكمة، وأجرى فيه بحارها، وسبح سرِّي في سَيْحها، حتى أني والله لأنظر إلى معظم البحر إذا اشتدت عليه الرياح الزعازع فَعَلا موجه، وارتفع دويُّه، ثم أنظر إلى تموج بحر الحِكَم في صدري فأجد معظم ذلك البحر بما وصفناه من تلاطم الأمواج، واشتداد الأرياح ساكنًا لا حراك له عند تموج بحر الحكم في صدري، واصطفافه لاسيما في مكة المشرَّفة، فداخلني من ذلك رعبٌ شديد، وجزعٌ عظيمٌ شديد، وخوفٌ مُتْلِف، فعزمت على قطع الميعاد وألاّ أقعد للناس، فأُمرت بالقعود والنصيحة للخلق قسرًا وحتمًا لازمًا واجبًا، فقعدت رفيع الكلام، مُسلط الحسام... إلخ.

وقال في «فتوحاته المكيّة»: وهذا الكتاب مع طوله وكثرة أبوابه وفصوله ما استوفينا فيه خاطرًا واحدًا من خواطرنا في الطريق. انتهى.

فإن في النَّفَس الواحد يُدخل قلبَ العارف من الحكم والمعارف ما لا يدخل تحت عدٍّ ولا حساب؛ لأنه عن فيض الوهّاب.

وحكى الشعراني ﷺ عن نفسه أنه لمّا فتح الله عليه بواسطة شيخه سيدي علي الخواص، بعد ما صحب أكابر قد عُدُّوا من الخواص، رأى أنه قد انفتح في قلبه ثلاثون بابًا، كل باب

منها مقدار ما بين السماء والأرض، ورأى جميع الأبواب مملوءة بالعلوم والمعارف داخلة إلى قلبه على الدوام. انتهى بمعناه.

فهذا هو الفيض الرباني، والفتوح الرحماني، وعنه أُلِّف كتاب: «الجوهر المصون والسرّ المرقوم» فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم، ذكر فيه نحو ثلاثة آلاف علم، وألف كتاب: «تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء»، ذكر فيه أحد عشر وسبعين ألف علم.

وقال شيخ الطائفتين ومقدم الطريقتين الإمام الجنيد البغدادي -قدّس الله سره -: العلم علمان: علم العبودية، وعلم الربوبية، والبواقي هَوَس النفس، والعجب ممن دخل في هذه الطريقة، وأراد أن يصل إلى الحقيقة، وقد حصل من الاصطلاحات ما يستخرج به المعاني من كلام الله تعالى، وأحاديث رسول الله ﷺ، ثم لا يشتغل بذكر الله تعالى ومراقبته والإعراض عمَّا سواه؛ لِتَنْصَبَّ إلى قلبه مياه العلوم اللدُنِّيَّة التي لو عاش ألف سنة في تدريس الاصطلاحات وتصنيفها لا يشمّ منها رائحة، ولا يشاهد من آثارها وأنوارها لمعة. انتهى.

ولقد حكى لي شيخنا الشيخ عبد اللطيف الخلوتي -رحمه الله تعالى- قال: لمّا أدخلني شيخنا في الخلوة التسعينية كنت أرى الحقائق الإلهية واردة على القلب متزاحمة متراكمة، بحيث لو جلست أُملي الذي يُفاض عليّ لأكثر من واحد لعجزوا عن كتابته، وقد ترجمته في رسالة سميتها: «الكوكب الثاقب في بعض ما لشيخنا من المناقب».

فالعلوم لا تحصى، إذ المواهب لا تستقصى، والعثور على أمهات هذه العلوم لا يكون إلا بالسلوك المعلوم؛ لأن به تتنوَّر الأفهام، وتزول الأوهام، ويقع الإلهام، ويرتفع الإيهام.

قال الشعرانيﷺ في «مِنَنه»: فأول ما جمعني الله تعالى على سيدي علي المرصفي شيخ الطريق بالديار المصرية، فلقَّنني الذكر وأخلاني، ثم جمعني الله تعالى على الشيخ محمد الشناوي، فلقّنني الذكر وأشغلني بالله، ولم يكن طريقه الخلوة، ثم جمعني الله تعالى على عارف الزمان الشيخ الكامل الراسخ الأمي المحمدي سيدي علي الخواص، فأطلعني على حقائق ودقائق وأسرار، ولم أفارقه عشر سنين، حتى مات فكان منه الذي كان، وعلمت وتحققت أن الإنسان ولو بلغ في العلم الغاية، فلابد له من شيخ في طريق العمل به كما وقع للإمام الغزالي والشيخ عز الدين بن عبد السلام واليافعي وغيرهم، فأقل فوائد الشيخ أن يختصر الطريق للمريد، وذلك أنه يوصل المريد إلى أن يصير يجعل أعماله كلها مقاصد امتثالاً لأمر الله تعالى،

بخلاف المريد وحده، فإنه يتخذ أعماله كلها وسائل ثم يطلب الثمرة فلا يجد فينحلّ عزمه إلى آخر أمره. انتهى.

وقال في الجواهر والدرر كبريت أحمر: سألت شيخنا ﷺ عن أعلى العلوم مرتبة، فقال: أعلاها العلم بالله، وأعلى العلم بالله تعالى: علم الكشف، ويليه علم النظر، وليس دون النظر علم إلهي أبدًا، إنما هي عقائد في قلوب الخلق لا علوم.

قال: وإيضاح ذلك أن علم الحق تعالى إذ تجلى لظاهر النفس وقع لها الإدراك بالحس في برزخ التمثيل، فإن كان المنجلى له من علماء الشريعة زيدت له في ميزان الكلام، وهكذا، لكن لا يَعلم أن تلك الزيادة من تجلي علم الحق تعالى في القلب إلا العارفون فقط، وأما غير العارفين فينسبُون الزيادة إلى أفكارهم إذا حسُّوا بها، فإن لم يحسُّوا بها فهم أهل حجاب، ومن هنا كان أبو يزيد البسطامي ﷺ يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.

وسمعتُه ﷺ يقول: من كان علمه مستفادًا من نقل فليس بعالم، إنما هو صاحب ظن، إلا أن أسند إلى النصوص القطعية.

وقال: ومن أراد أن يعرف مرتبته في العلم يقينًا لا شك فيه فليرد كل قول حفظه إلى قائله، وينظر بعد ذلك فما بقي معه فهو علمه، انتهى.

وعلى هذا، فطلب العلم بالله من أعظم القربات، وأفضل المثوبات، وتاركه ملُوم، وبداء جهله مكلوم.

قال سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ: من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مُصِرًّا على الكبائر وهو لا يشعر. انتهى.

واعلم أن طريق الوصول إلى هذه العلوم المنيفة والمعارف الشريفة: الاستقامة على متابعة قدم المصطفى، والتخلق بأخلاقه الكريمة، وحُسْن الاقتفاء، قال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت:٦٩]، ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾ [البقرة:٢٨٢]، ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانا**﴾ [الأنفال:٢٩] قال القاضي: أي: هداية في قلوبكم تفرّقون بها بين الحق والباطل، انتهى.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١] ومن أحبه الله فتح له الباب، وأدخله حضرة الاقتراب، وصيّره من الأحباب، وكشف له الحجاب، فرأى الغيب شهادة، وصار له خرق العوائد عادة، وأفيضت على قلبه مياه الحقائق، وانكشفت له البراقع عن وجوه الرقائق، وعلَّمه الله من لدنه علمًا، وعرَّفه بنفسه فعرف ربه وأدرك السرَّ الأسمى، ودخل حضائر الأسماء، فكان وارث آدم الصفي، وحارث سر سر خفي، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١].

فالعلوم المنسوبة له هي علوم الأسماء الإلهية التي أعجز الأنام إدراك أسرارها الخفية، وما تنـزلت علوم آدم عليه السلام إلا بواسطة الرفيعة المحمدية الكاشفة سجف الغمام، فلهذا قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: (**تنـزلت**) أي: به ومنه (**علوم آدم**) أي: وهو أبو البشر -صلى الله تعالى عليه- وعلى سائر أولاده من النبيين والمرسلين وسلّم تسليمً إلى يوم الدين، وأول الرسل - لما في الحديث -: «**أول الرسل آدم وآخرهم محمد، وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول من خطّ بالقلم إدريس**»[1] رواه الحكيم عن أبي ذر.

وإنما كانت علومه علوم الأسماء؛ لأن عنها كان بداء الظهور، وهو كان مبدأ ظهور هذا الفرع الإنساني فناسبته علومها.

قال القاضي عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]: إما بخلق علم ضروري بها فيه، أو إلقاءٍ في روعه، ولا يفتقر إلى سابقة اصطلاح للتسلسل، والتعليم فعل يترتب عليه العلم غالبًا، ولذلك يقال: علَّمه فلم يتعلَّم.

وآدم: اسم أعجمي كآزر وشالخ، واشتقاقه من الأَدَمة -بالفتح- بمعنى: الأسود، أو من أديم الأرض لما روي عنه ﷺ: «أنه تعالى قبض قبضة من جميع الأرض، سهلها وحزنها، فخلق منها آدم»، فلذلك يأتي بنوه أخيافًا - أي: مختلفين -.

قلت: ولفظ الحديث: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ**

(١) رواه ابن حبان (٢/ ٧٧).

وَالطَّيِّبُ»[1] رواه أحمد والترمذي وأبو داود وغيرهم عن أبي موسى ﷺ.

قال: أو من الأدْم أو من الأدْمة كاشتقاقهم إدريس عليه السلام من الدرس، ويعقوب من العقب، وإبليس من الإبلاس.

والاسم باعتبار الاشتقاق: ما يكون علامة للشيء ودليلاً عليه يرفعه إلى الذهن من الألفاظ والصفات والأفعال، واستعماله عرفًا في اللفظ الموضوع لمعنى سواءً كان مركبًا أو مفردًا مخبرًا عنه أو خبرًا، أو رابطة بينهما واصطلاحًا في المفرد الدال على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة.

والمراد به في الآية إما الأول أو الثاني، وهو يستلزم الأول؛ لأن العلم بالألفاظ من حيث الدلالة متوقف على العلم بالمعاني، والمعنى أنه تعالى خلقه من أجزاء مختلفة، وقوى متباينة، مستعدًا لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموضوعات، وألهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها، وأصول العلوم، وقوانين الصناعات، وكيفية آلاتها. انتهى.

وقال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في شرح «الهمزية»: وأصله أأدم لكنهم لينوا الثانية تخفيفًا وجعلوها في التصغير واوًا نظرًا لبدئها، من الأدمة بالسكون أو الفتح، أو من أديم الأرض، كما صح عن ابن عباس - رضي الله عنهما- وورد عن علي وابن مسعود - رضي الله عنهما.

وأديم الأرض: ظاهر وجهها، والأُدْمة: السمرة وهو سواد، فمن قال: لون يقارب السواد، ومن قال: يشبه التراب، واستشكل بما رود من بديع جماله، وأن يوسف عليه السلام كان على الثلث من جماله، وقد يجاب بأن الجمال ينافي السمرة؛ لأنها بين البياض والحمرة، قيل: اشتقاقه مما ذكر يؤيده أنه عربيّ، وبه صرح الجواليقي وغيره، ورُدَّ بأن توافق اللغتين غير منكر، وبأنه لا دليل على أن الاشتقاق من خواص كلام العرب، وأُجيب بأن الأصل عدم التوافق، وبأن الوجه أن الاشتقاق خاص بكلام العرب، فقد أطبقوا على أن التفرقة بين اللفظ العربي والعجمي بصحة الاشتقاق، وصَحَّ خبرٌ: «**إن آدم كان يتكلم بكل لسان**»، ولكن الغالب أنه كان يتكلم بالسرياني انتهى.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٢٢)، والترمذي (٥/ ٢٠٤).

وقول المؤلف -رحمه الله تعالى-: (**وتنزلت علوم آدم**) إن حملناه على ظاهر العادة في السابق بالظهور قدّرنا فيه، أي: تنزلت فيه علوم أبيه (**فَأَعْجَزَ الْخَلَائِقَ**) كما أعجز أبوه الملائك، وإن حملناه على حقيقة الأمر وباطنه قدّرنا به أو منه، ويكون الضمير في (**أعجز**) راجع لآدم، والمراد بالخلائق: الملائكة، وهذا أبلغ في التعظيم، فذاك أظهر في التقسيم، قال الأبوصيري رحمه الله تعالى:

لـــكَ ذاتُ العلـــومِ مـــن عـــالِمِ الغَيـــ ـــــبِ ومنهـــــا لآدمَ الأَســـــماءُ

أي: لك حقيقة العلوم لا لغيرك من مَنِّ عالِمِ الغيب -وهو الله - عليك، ومنها: أي ومن العلوم بمعنى المعلومات - لآدم الأسماء، أي: أسماؤها.

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: واحتاج الناظم إلى هذا التفصيل مع العلم به مما قبله؛ لأن آدم ميّزه الله تعالى على الملائكة بالعلوم التي علّمها له، وكانت سببًا لأمرهم بالسجود والخضوع له بعد استيلائهم عليه بذمّه ومدحهم بقولهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا**.. ﴾ إلخ، فربما يتوهم أن هذه المرتبة الباهرة لم تحصل لنبيِّنا ﷺ، إذ قد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل، فردّ ذلك التوهم ببيان أن آدم لم يحصل له من العلوم إلا مجرد العلم بأسمائها، وأن الحاصل لنبيِّنا ﷺ هو العلم بحقائقها ومسمّياتها، ولا ريب أن العلم بهذا أعلى وأجل من العلم بمجرد أسمائها؛ لأنها إنما يؤتى بها؛ لتبيين المسمّيات فهي المقصودة بالذات وتلك بالوسيلة، وشتان ما بينهما، ونظير ذلك أن المقصود من خلق آدم إنما هو خلق نبيِّنا ﷺ من صُلبه، فهو المقصود بطريق الذات، وآدم بطريق الوسيلة، ومن ثم قال بعض المحققين: إنما سجد الملائكة لأجل نور محمد ﷺ الذي في جبينه.

ثم ما سلكه الناظم من أن آدم إنما عُلِّم أي: بإحدى الطرق السابقة آنفًا - الأسماء فقط، أي: الألفاظ الموضوعة بإزاء الأعيان والمعاني هو الوارد عن ابن عباس، وعليه فقيل: عَلِم الأسماء الموضوعة بكل لغة وعَلَّمها لأولاده، فلما افترقوا في البلاد وكثروا اقتصر كل قوم على لغة، وهذا يقوي ما هو الأصح في الأصول من أن اللغات كلها توقيفية.

وقيل: إنما عَلِم لغة واحدة؛ لأن الحاجة لم تدع إلا إليها، وأما بقية اللغات فبالوضع، ويقابل ما سلكه الناظم قولان:

أحدهما: إنه إنما علم مدلولاتها؛ لأن المزية في العلم إنما تحصل بمعرفة مقاصد المخلوقات ومنافعها لا بمعرفة أن أسماءها كذا وكذا.

قال بعض المحققين: وهذا وإن قرب من المعنى فهو بعيد من اللفظ؛ لأن قوله: ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ وما بعدها ظاهر أو صريح في الأسماء فقط، ومعنى ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي: الأعيان؛ لأنها التي تعرض دون الأسماء، وإنما أبرزت إليهم، ليخبروا بأسمائها، فلا تأييد فيه لكون المعلَّم المسمّيات خلافًا لمن زعمه.

ثانيهما: وهو الذي سلكه صاحب «الكشاف» : أنه علم الأمرين معًا جمعًا بين مقتضى اللفظ والمعنى. انتهى.

وبين قوله: (ارتقت) و(تنزّلت) جناس التقابل، فإنه لمّا رقى إلى أعلى المراقي ارتقت به الحقائق ثم نزل متدليًا للإرشاد الغيبي والعيني فتنزلت عليه الرقائق.

وقوله: (**فأعجز الخلائق**)[1] أي: بها وبما جاءهم من البينات، أو عن وصفه، أو عن معرفة كُنْه ذاته، وكيف لا يعجزهم، وقد جمع علوم الأولين والآخرين إلى علمه، وأتى بالقرآن المعجز، وجوامع كلمه، وقد يكون الإعجاز بتنزّل علوم آدم وبثه لها في الخليقة، أو بكلّ ما تقدم من الأوصاف الشريفة الوثيقة قال في البردة:

أعْيَا الوَرَى فَهْمُ معْناهُ فليس يُرَى ... في القُرْبِ والبُعْدِ فيهِ غيرُ مُنْفَحِمِ

اعلم أن نبيَّنا ﷺ لمّا كان مُسْتَوعبًا سائر الكمالات الظاهرة والباطنة، وكان هيكله الظاهر لنا أصل كل كمال حسّي ظاهر، ومعناه الباطن أصل كل كمال غيبيٍّ باطن، وكان الكمال الظاهر عن فيض صورته الظاهرة، والباطن عن فيض معانيه الباطنة، وعجز الواصفون عن وصف صفة من صفاته على الكمال، وأقروا بعدم المعرفة له حق معرفته بما هو عليه من الجلال والجمال، ولأنه جامع لمحاسن الأخلاق لا على وصف التقييد بل على وصف الإطلاق، ولم تكن أخلاقه كَسْبيّة بل جِبلِّية ضرورية، فما اتصف متصف بصفة كمال على

(١) وفاعل أعجز- هو نبينا- محمد ﷺ فإنه لمّا تنزلت عليه علوم أبيه التي أعجزت الملائكة، أعجز بها كل الخلائق لجمعه لها، وللعلوم الصفاتية والذاتية، ولأنه أعطي العلم بالمسّميات، وآدم عليه السلام الْمُعْلَمْ بأسمائها.

الكمال كاتِّصافه، ولا اغترف مغترف من بحر المعرفة كاغترافه، فكل صفة من صفاته خصّها الحق بالوسع الإلهي، فلا تدخل تحت قيد حصر ولا تناهي، ولمّا تخلّق باسمه تعالى (الواسع) وسع العالمين خَلْقًا وخُلُقًا، وأدرك أسرار الكائنات على التفصيل حقًا وخَلقًا، فما وصف واصف صفة من صفاته، فبلغ ثُلثي عُشرها ولا أنصف، ولا مدحه مادح وبالغ إلا وقيل فيه: ما أنصف، ولو اعترف بالعجز والقصور على ارتقاء هذه المعالي والقصور كان في فعله مصيبًا، ونال من معرفة ذلك نصيبًا.

قال سيدي محمد البكري -قدس الله سره- في صلواته النبوية: منْ غاية المُجِدّ المُجِيد في الثناء عليه الاعتراف بالعجز عن اكتناه صفاته، ونهاية البليغ المُبالغ ألا يصل إلى مَبالغ الحمدِ لَهُ على مكارمه وهباته.

وأنشد الأبوصيري -رحمه الله تعالى- في البردة قوله:

فمبلغُ العلمِ فيه أنَّه بشرٌ وأنه خيرُ خلقِ الله كلِّهمِ

أي: غاية علم الخلق فيه ما ذكر، وثَمّ ما لا تصل إليه أفهامهم، ولا تتعلق به أوهامهم؛ لأن العقول قاصرة غير باصرة، معقولة، وعُري التحقق في هذا المقام غير مشدودة بل محلولة، ومن كشف له الحجاب وارتفع عنه النقاب، ورأى نور الحق ظاهرًا لا غيره، وزالت منه الغيرة عليه وثبت فيه الحيرة، وشاهد فناء الأشياء عند تجليه، وانمحاقها عند ظهوره وتوليه، لم يدرك حقيقة شيء من الأشياء؛ لأن وجود الحق هو الثابت ووجودها كلها فناء، وإلى هذا أشار الخاتمي الحاتمي -قدس الله سره- بقوله:

فلست أدرك من شيءٍ حقيقته وكيفَ أدركه وأنتم فيه

أي: من حيث الإمداد العلي، والإسعاد الجلي.

وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تدرك في الدنيا حقيقة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم؟ ولنذكر عبارة الشارح ونجعلها الختام، عسى بها جرح الكلوم يلتام، قال -رحمه الله تعالى- قوله: (**وتنزّلت علوم آدم، فأعجز الخلائق**) أشار بما ذكره إلى اتساع علمه ﷺ، وأن معلوماته عجز عن إدراكها جميع الخلائق، وأراد بعلوم آدم عِلْمَ الأسماء التي علَّمه الله تعالى، فتنزّلت في نبينا محمد ﷺ بحسب الوراثة، فأعجز الخلائق كما عجزت الملائكة الكرام عن

علم ما علمه الله لخليفته، فقام ﷺ مقام موروثه في الإعجاز، وهذا التوارث وإن وقع في حضرة الفرق هكذا، فوقوعه فيها كذلك بحسب الحكمة العادية الواقعة بين السابق حسًّا وجسمًا على اللاحق في حضرة السابق، فنبينا ﷺ مُفيد لا مُستفيد، فأرواح العلماء وقلوب العارفين من المرسلين والنبيين وعباد الله الصالحين تتلقى من روحه ﷺ العلم والحكمة والمعارف الربانية والأسرار الملكوتية؛ ولهذا سمي روحه ﷺ أبا الأرواح، أي في قوله: «**أنا يعسوب الأرواح**»[1].

أي: أصلها وكبيرها، فعلوم العلماء ومعارف العارفين وحكم الحاكمين كلها مستفادة من علومه ﷺ ومعارفه وحكمه، وكل ما علمه العالمون، واستفاده العارفون، وفهمه الحكماء من علوم ومعارف وحكم، الجميع نقطة من بحره ﷺ؛ فهو بحر العلوم ومنبعها، وقلبه معدنها، وباطنه مهبطها ومرساها، فظهر من هنا أنه ﷺ وارث لحَضرة الفرق والوجود الرباني، وموروثه حضرة الجمع والوجود الروحاني، ولهذا قيل: إذا لقي آدم عليه السلام نبينا ﷺ يقول آدم عليه السلام لنبينا ﷺ: «يا ولد ذاتي ووالدي» معناه يشير إلى أن روحه ﷺ أبو الأرواح انتهى.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: (**وَلَهُ تَضَاءَلَتِ الْفُهُومُ**) قال في «المصباح»: ضؤلُ الشيءِ بالهمزِ ميزانُ (**قُرْبٍ**) ضؤلاً وضآلة فهو ضئيلٌ مثلُ: (**قرِيب**) أي: صغير الجسم قليل اللحم، وامرأة ضئيلة، وتضأل مثله. انتهى.

والمعنى هنا: أي: تصاغرت وتقاصرت، الفهوم: جمع فهم، قال في «المصباح»: فهمته فهمًا من باب (تعِبَ)، وتسكين المصدر لغةٌ، وقيل: اسم للمصدر إذا أعلمته؛ قال ابن فارس: هكذا قاله أهل اللغة، وتعدّى بالهمزة والتضعيف.

وإنما تضاءلت له الفهوم؛ لأن روحه الشريفة روح قدسية، والروح القدسية عندهم فهم الأمور الكلية الخفية كالأمور الجزئية الجلية، فتتصاغر الفهوم عند هذه الروح الزكيّة، وإن كانت عويصة أبيّة، وهذا شأن بعض خُدّامة وأتباعه، المقتفين لآثاره، والسالكين على ضوء شعاعه، أنهم إذا سُئلوا عن مسألة دقيقة غامضة أتاهم الجواب من فيض الوهاب قبل

---

(١) ذكره الشيخ جعفر الكتاني في «جلاء القلوب».

تمام السؤال، فيجيبون من غير تَعَمُّل روية وفكر أو اشتغال بال، بجواب سديد محرّر مفيد، فأين الفهم بالنسبة لأهل هذا الحال؟ وأين هم من أكمل الخلق الذي به كَمُل الكمال؟ فإن أرواحهم إذا كانت قدسية فهي عن فيض مدد روحه الأقدسية، قال الله تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾ [البقرة:٢٨٢]، فمن كان معلّمه الحق تضاءلت له الفهوم، وحجّت لكعبة قلبه غرائب العلوم، كما جرى ذلك للمنلا جامي -رحمه الله تعالى- فإنه أخبر عن نفسه ألاّ فضل لأحد عليه فيما ظهر منه من العلوم إلا والده، فإنه قرأ عليه وريقات في علم الكلام -أي: علم الصّرف- وجميع ما ظهر عنه بطريق الفيض الربّاني والفتح الرحماني.

وهكذا وقع لسيدي محيي الدين -قدس الله سره- قال الشعراني ﷺ في كتابه «الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم»: ومنها- أي: ومن علوم الخلوة -أن يُفتح عليه- أي: على المختلي- بما شاء من نواطق الأولياء، كما وقع لأخي الشيخ أبي العباس الحُرَيثي، والشيخ عمر البجائي، ففتح على الأول بناطقة الشيخ عبد القادر الجيلي، وفتح على الثاني بناطقة أبي الحسن الشاذلي وسيدي علي بن وفا، ولم يكن يعهد منهما قبل الخلوة شيء من ذلك، وكانت خلوة أخي أبي العباس أربعين يومًا، وخلوة الشيخ عمر البجائي سبعة أيام كما أخبراني بذلك، وأكمل من بلغني أنه أعطي نواطق إمام الصوفية الشيخ محيي الدين ابن العربي ﷺ، وكانت خلوته ثلاثة أيام بلياليها في قبر مندرس، ثم خرج بهذه العلوم التي انتشرت عنه في أقطار الأرض، وكان موقعًا عند بعض ملوك المغرب، ولم يكن يعهد منه علم واحد مما أبداه في كتبه قبل تلك الخلوة.

كما ذكره الشيخ عز الدين بن جماعة، والشيخ مجد الدين الفيروز آبادي صاحب «القاموس» ﷺ، وقال في كتابه «الجواهر والدرر» - وهو كتاب يحكي فيه على لسان الوارد قال -أي الوارد-: من كان الله معلمه كيف يدرَك لعلمه قرار؟ وكيف يؤمر بالتقليد لبعض المجتهدين؟ وأين من هو في حضرة الحق ممن هو في حضرة أحكامه من وراء سبعين ألف حجاب على نفسه؟ وأين من يقول: ورد عليَّ من الحق كذا وكذا ممن يقول: سمعت أحد الفقهاء يفتي بكذا؟ وكان أبو يزيد البسطامي ﷺ كثيرًا ما يقول للفقهاء: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت حين جهلتم أنه عن ربكم، وأخذنا نحن علمنا عن الحي الذي لا يموت بلا واسطة، بل قلبنا يحدثنا عن ربنا ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**﴾ [الحديد:٢١].

وقد شاهدت من شيخنا الشيخ علي الخواص ﷺ علومًا يعجز عن فهمها أكابر العلماء،

وكان أميًّا، لم يعرف الخطّ ولم يجالس العلماء، وكذلك بلغنا عن سيدي محمد وفا وسيدي إسماعيل الأنبابي وسيدي إبراهيم المتبولي، وعطاء الله واسع لا يتوقف على ما يتوقف عليه علم العلماء من معرفة العربية واللغة والأصول وغير ذلك، ومن أراد تحقيق ما أنهيناه في حق الأولياء: فلينظر في «شرح المشاهد القدسية» لسيدة العجم، فإنها ذكرت عن نفسها أنها لم تعرف الخطّ ولم تمارس العلوم، وأنه ليس معها من العلم إلا ما تعلمه من الله، فمن رآه ولم يقطع بما قلت فهو أعمى القلب، فإن فحول العلماء تعجز عن فهم مواد ألفاظه فضلاً عن معانيها، فالحمد لله الذي مَنّ علينا بمحبة أوليائه حمدًا لا يحصى انتهى.

فهؤلاء السادة قد تضاءلت لهم العلوم والفهوم حين أخذوها عن الحي القيوم، فكيف لا تتضاءل لمن هو منبعها ومشرعها، وعنه ظهورها وللكاسات هو مترعها، وحيث كانت له الفهوم متضائلة، فأصحابها كذلك قاصرة عن فهم حقيقته، والوقوف على سرٍّ من أسرار رقيقته، ولقد جلت في هذا المقام مجالاً، وأنشدت معربًا عنه ارتجالاً:

رأينا خمرَ حبِّهِمُ حلالاً ... لذا طُفنا على ساقٍ حِلالا

وعِفْنا غيرهم لمّا عرَفنا ... بأنَّ الأمرَ للآل آلَ

وطاف مريدُ كأسِ القربِ ليلاً ... على النُّدمان إذ غفِلَ الكُسالى

وقد أسقى الكئيب قديم كأس ... يفوق بفعله السحر الحلالا

فأسكره به فصحا لديه ... ومُذ والاه بالإمداد والى

وحقّقه بسرّ السرّ سرًا ... وصال عليه إذ يبغِي الوصَالا

وعرّفه بأن الوصلَ منهُ ... فتىً قد رامَه رامِ المُحَالا

تعالى يا مريدَ القربِ فادنوا ... لتشهدَ نورَ نورٍ قد تعالَى

وتدرك سرَّ أسرارِ المعالي ... وشمسَ شموعها الراقي جمالاَ

إمامٌ سيّدٌ سندٌ سنيٌّ ... دنا كالقاب بل أدنى دلالاَ

ولمّا الحبُّ صيّره حبيبًا ... وكمّل من محاسنه الكمالا

وورّثـــه علومًـــا مـــا حواهـــا ... ســـواه والـــسوى منًّـــا أنـــالا

تـــضاءلت الفهـــوم لـــه وكلَّـــت ... عقـــول القـــوم إذ رامُـــوا مَنَـــالاً

ومنـــهُ كـــلُّ سرٍّ قـــد تبـــدَّى ... وعنـــه كـــلُّ نـــورٍ قـــد تَـــلاَلاَ

وذلـــك نـــورُ أحمِـــدِنا الـــذي لم ... نجـــدْ في الكائنـــات لـــهُ مثـــالاً

عليـــه اللهُ صـــلّى كـــلَّ وقـــتٍ ... وســـلّم مـــا إليـــه القلـــب مـــالا

كـــذا آلٌ وأصـــحابٌ كـــرامٌ ... لقـــد جـــاءوه ركبانًـــا رِجـــالاً

ثم قال -رحمه الله تعالى-: (فَلَمْ يُدْرِكْهُ مِنَّا) أي: فلم يلحقه منا معاشر المخلوقات (سَابِقٌ) أي متقدم في الظهور والمقام (وَلَا لَاحِقٌ) أي: متأخر فيهما؛ لأنه سيد الأولين والآخرين، والمعنى أن الفهوم لمّا تقاصرت وتصاغرت لحقها العجز؛ فلهذا لم يدركه أي: لم يلحقه على وجه الإحاطة ولو بصفة من صفاته مِنَّا سابقٌ ولا لاحق؛ لأنّا لم ندرك منه إلا قدر وسعنا؟ وأين وسعه ﷺ من وسعنا؟ ولهذا كان يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويظهر لهم من جماله على قدر ما يطيقون شهوده.

قال في «شرح دلائل الخيرات»، وفي «شفا» ابن سبع: إنه كان ﷺ يضيء البيت المظلم من نوره، ولكن لم يظهر لنا تمام حسنه؛ لأنه لو ظهر لنا حقيقة حسنه لما طاقت أعيننا رؤيته، وكذلك لم يظهر لنا عقله؛ لأنه لا تحتمل قلوبنا ذلك، وقد قال ﷺ: «**إني لأتكلم على قدر عقولكم**»[1] انتهى، وأشار إليه القرطبي.

وقال الشيخ أبو محمد عبد الجليل القصري في «شعب الإيمان»: وحُسْن يوسف عليه السلام وغيره جزء من حُسْنه؛ لأنه على صورة اسمه خُلِق، ولولا أنه -تبارك وتعالى- ستر جمال صورة محمد ﷺ بالهيبة والوقار، وأعمى عنه آخرين؛ لما استطاع أحد النظر إليه بهذه الأبصار الدنيوية الضعيفة، وقد وقعت لعائشة -رضي الله عنها- إبرة في ظلمة في بيتها فرأتها وأبصرتها بنور ضياء محمد ﷺ. وفي «الصحيح»: «**إن وجهه كمثل الشمس، ومثل البدر على قدر ما**

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفا» (١/ ١٩٦).

يستطيع كل أحد أن ينظر إليه ﷺ»[1]. ومنهم من لم يكن يملأ عينه منه انتهى.

ولقد أحسن الأبوصيري -رحمه الله تعالى- حيث قال:

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُرى ... للقربِ والبعدِ فيه غيرُ منفحمِ

كالشمسِ تظهرُ للعينين من بُعدٍ ... صغيرةً وتكلّ الطرفَ من أممِ

وهذا مثل قوله أيضًا:

إنما مثَّلُوا صفاتك للنا ... س كما مثَّل النجومَ الماءُ

ولقد أشار لهذا المقام سيدي محمد البكري الهمام ﷺ في «صلواته النبوية» بقوله: مَن لا تدرك العقول الكاملة منه إلا مقدار ما تقوم عليه به حجته الباهرة، ولا تعرف النفوس العرشية من حقيقته إلا ما يتعرف لها به من لوامع أنواره الزاهرة، انتهى.

وقد جرى قلم التقدير بكتابة هذه الأبيات حال التسطير، وهي:

منكم قد انشقّت لنا الأسرارُ ... وبكم قد انفلقتْ هنا الأنوارُ

حتى حقائقنا ارتقتْ وتنزّلت ... أسماءُ آدمِ فيضُها مدرارُ

وبها لقد أعجزتمُ كلَّ الورى ... لمّا غدت كاسات تلك تُدار

ما مثلها مسكٌ تضوّع نشرَهُ ... ما مثلها في العالمين عقَار

ولكم تضاءلت الفهوم فليس يد ... رك شأوها أحدٌ له مِقدارُ

مِن سابقٍ أو لاحقٍ إذ أنتمُ ... أصلُ الجميعِ، وحسنُهم فمُعارُ

مَن مثلُكم مَلَكَ الوجودَ بأسرِه ... وهو الحِمَى والحيُّ وهو الدّارُ

من مثلُكُم جمع المحاسنِ كلِّها ... وبما حوَى كلُّ البرية حاروا

كلُّ الكمال فتحتُ طيِّ ردائكم ... من نثره قد حارتِ الأفكار

أوصافُكم عزّت لعزّ جنابِكم ... ما شق في الغرّا لهن غبارُ

قد أذعنت كلُّ الأنامِ لفضلِكم ... وببابِكم وقفت فجاءَ نثارُ

---

(١) قد قال هند ابن أبي هالة ﷺ كما في الشمائل: كان ﷺ فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألأ القمر ليلة البدر.

يـــا سرَّ قبـــضةِ نـــورِه، والـــدرّةَ الـــ ... بيـــضا، ومـــن بكمالِـــه يحتـــارُ
يـــا نـــورَ نـــورِ النـــور والـــسرَّ الـــذي ... ضربـــت عليـــه في الـــورى أســـتار
أنـــتم بحـــورُ غيـــوبٍ غيـــبٌ شـــهودُهُ ... وســـواكمُ الأحـــواضُ والأنهـــارُ
ظهـــرت شموسُـــكم بـــأرضِ قلوبِنـــا ... فتنـــورت وأتـــى لنـــا الإبـــصارُ
بجلالكـــم، بجمالكـــم، بكمالكـــم ... جـــودُوا بقـــربي تنمحـــي الآثـــارُ
فـــالقربُ مـــنكم مـــاء أنـــسٍ يـــشترى ... بـــالرُّوح والإبعـــادِ عـــنكم نـــارُ
ووصـــالكم هـــو جَنّتـــي بـــل جُنّتـــي ... أرجـــو يَقِـــرُّ لنـــا بتلـــك قـــرار
يـــا ســـيدًا ســـادت بـــه ســـاداتنُا ... وقـــد أحـــضرت بحـــضورِه الحُـــضّار
كـــن لي شـــفيعًا مـــن ذنـــوب قيـــدت ... رجـــلي وعـــاقتني بهـــا الأقْـــدَارُ
واشـــفع بجاهِـــك لي عـــسى أنجـــو غـــدًا ... ممـــا جنيـــتُ وتُغفَـــر الأوزارُ
صـــلّى عليـــك الله منـــه مـــسلّما ... مـــا أن تبـــدّى في الوجـــود نهـــارُ
وعـــلى جميـــع الآل والـــصحب الـــذي ... جـــاءت بمـــدحِ صـــفاتِهم أخبـــارُ
والتـــابعين لهـــم وتـــابِعِهم إلى ... يـــوم اللقـــا مـــا أخـــضرّت الأشـــجارُ
أو مـــصطفى البكـــريُّ نـــادى واهًـــا ... مـــنكم قـــد انـــشقت لنـــا الأسرارُ

ولنذكر عبارة الشارح ونجعلها كالطابع والختام، ونسأل الله تعالى حسن الختام.

قال رحمه الله تعالى: قوله: (**وله تضاءلت الفهوم، فلم يدركه منّا سابق ولا لاحق**).

أشار -رحمه الله تعالى- إلى خفيِّ سرِّ روحانيته الأحمدية، ورفيع قدر صورته المحمدية؛ إذ حقيقة ذلك لم يدركها أحد بفهمه: ﴿**ولا يُحِيطُون بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِه إِلاَّ بِمَا شَاء اللهُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥] من ظواهر الأمور وباطنها، وجليها دون خفيّها، فالفهوم كلَّت، والعقول وقفت عندما طلبت الاستشراق، وتضاءلت عن درك خفي سرّه، والوقوف على حقيقة أمره، وما يعلم ذلك إلا الذي خصّه به سبحانه، وإذا كان الولي لا تدرك حقيقته في هذه الدار فكيف

الرسل عليهم الصلاة والسلام؟ وكيف بسيدهم وإمامهم محمد ﷺ؟ وما أدرك الناس من حقيقة أمره وخفي سره إلا على قدر عقولهم البشرية، فما ظهر لهم من ذلك نعمة عليهم؛ ليعرفوا قدره ويعظموا أمره، وما أُخفي عنهم منه فرحْمة من الله بهم؛ إذ لو ظهر لهم مع عدم قيامهم بالحقوق لكان فتنةً لهم، والله أرسله رحمةً للعالمين، فكانت النعمة فيما ظهر، والرحمة فيما استتر.

ثُمّ إن الناس في اطلاعهم على سرِّ نبوته وخصوصية رسالته بحسب مقاماتهم ومنازلهم، فكل أحد كشف له من ذلك بحسب مقامه، وعلى قدر قرب رُوحه من روحه ﷺ وأعظم الناس كشفًا لذلك وأكثرهم عليه اطِّلاعًا هو الصِّدِّيق ﷺ؛ لأنه كُشِفَ له من خصوصية الرسالة المحمدية، وحقيقة الأسرار الأحمدية ما لم يُكشف لأحد غيره؛ ولهذا كان أشد الناس قربًا منه ﷺ، وأعظمهم خلَّة، وأكثرهم تعظيمًا واحترامًا، وكان أول المؤمنين بنبوّته، والمصدّقين برسالته من غير طلب دليل، ولم يَعْتَرِهِ توقف ولا تأويل انتهى.

ثم قال رحمه الله تعالى: (فَرِيَاضُ المَلَكُوتِ): الرياض جمع: روضة، قال في «المصباح»: والروضة الموضع المعجب بالزهور، يقال: نزلت أرضًا أريضة، قيل: سميت بذلك لاستراضة المياه السائلة إليها، أي: لسكونها، وأراض الوادي واستراض إذا استنقع فيه الماء، واستراض: اتسع وانبسط، ومنه يقال: افعل ما دامت النفس مستريضة، وجمع الروضة: رياض وروضات بسكون الواو للتخفيف، وهذيل تفتح على القياس. انتهى.

و(الملكوت) قال في «المختار»: والملكوت من الملك، كالرهبوت من الرهبة، يقال: إنه ملكوت العراق وهو الملك والعز، انتهى.

وهو في اصطلاح القوم عبارة عن عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس، ويقال له عالم الأنوار القدسية والأسرار الأنسية، وعالم الأرواح العلوية، وعالم الأمر الإلهي، وحضرة القدس.

(بزَهْرِ) أي: بنور نور (جَمَالِهِ) أي: حسنه الباهر الذي معناه تَنَاسُب الخلقة في الظاهر، والمراد منه في الباطن الاتصاف بالصفات العليّة، والتعري عن ملابس السمات الدنيّة، فمن جمع الله تعالى له بين الجمالين، وكمّله بهذين الكمالين كان مَظهر اسمه تعالى: «الجميل»، والدليل الذي يجعل الذليل مقرّبًا من الجليل، ولم تظهر هذه الصفة الجمالية على الكمال

كظهورها في سيد العالمين والعمال، فإن يوسف الصديق عليه السلام أوتي شطر الحسن، ونبينا كُلَّه على التمام من غير انقسام، قال الأبوصيري:

منـــزَّهٌ عـــن شريـــكٍ في محاسِـــنِهِ فجـــوهرُ الحـــسنِ فيـــه غـــيرُ منقـــسِمِ

لأنه ﷺ كما قال:

فهـــو الـــذي تـــمَّ معنـــاه وصـــورتُه ثـــم اصـــطفاه حبيبًـــا بـــارئُ الـــنَّسَم

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى-: فتبيَّن أن حقيقة الحسن الكامل كملت فيه وحده، ولم تنقسم بينه وبين غيره؛ لأنه الذي تم معناه دون غيره، ولو شُورك لم يتم معناه. انتهى.

والمراد بعدم المشاركة أي: في أصل الاتصاف والظهور؛ لأنها التي توجب التقسيم المحظور، وأما الإفاضة على المظاهر الجمالية بعد كمال الاتصاف، فلا تعدّ تقسُّمًا عند أهل الإنصاف، فإنا نعتقد أن كلّ جمال ظاهر فعن جماله الظاهر، وكل جمال باطن فعن جمال باطنه الباهر، فهو بحر الجمال الذي فاضت عن تموجه مظاهر الجمال المقيد؛ لأنه مرآة الجمال الإلهي المطلق الذي لا يتقيد، وكلّما أفاض يفاض عليه الإمداد ويتجدّد، فلا يقلّ ماء بحر جماله ولا يتفرق ولا يتبدّد، فإن ظهور الشمس على الكون لا ينقص نورها ولا يخرجه عن دائرة الصّون، وما أحسن قول سيّدي عمر بن الفارض -قدس الله سره- في فائيته:

لـــو أســـمَعوا يَعقُـــوبَ ذِكْـــرَ مَلاحَـــةٍ في وجهِـــهِ نَـــسِيَ الجَـــمالَ اليوسُـــفي

فإن الجمال المحمدي أصله، ومن رأى الأصل احتجب عن الفرع؛ لأن فيه ما فيه وزيادة، لكن هنا أنساه مجرد السماع دون كشف القناع، فكيف لو ارتفعت الأستار وتشفّعت الأوتار؟ وقد سُئلت عن معنى هذا البيت الذي هو كالمُغتَسَل البارد، وأودعت الجواب في كتاب: «**جمع الموارد من كل شارد**». وقوله:

وعـــلى تَفَـــنّنِ واصِـــفيهِ بِحُـــسْنِهِ يَفنـــى الزّمـــانُ وفيـــه مـــا لم يُوصـــف

قال ابن حجر -رحمه الله تعالى- في أول «شرح الشمائل»[1]: واعلم أن من تمام الإيمان

(١) انظر: أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل لابن حجر الهيتمي (ص٣٢)، بتحقيقنا، وذلك في بدء أمرنا قبل معرفة أنوار نبينا ﷺ، فليلتمس العذر والغفر لنا، فيما اجترئنا واقترفنا، والله حسيبنا ووليّنا.

به ﷺ اعتقاد أنه لم يجتمع في بدن آدمي من ا لمحاسن الظاهرة ما اجتمع في بدنه ﷺ، وسرُّ ذلك أن المحاسن الظاهرة آيات على المحاسن الباطنة والأخلاق الزكية، ويُشير إليه قوله ﷺ: «**اطلبوا الخير من حِسَان الوجوه**»(١).

ولا أكمل منه ﷺ، ولا مساوٍ له في هذا المدلول، فكذلك في الدال، ومن ثمّ نقل القرطبي عن أحدهم أنه لم يظهر تمامَ حسنه ﷺ، وإلا لما طاقت أعين الصحابة ﷺ النظر إليه. انتهى.

واعلم أن الجمال على أقسام شتّى، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا: جمال ربّانيّ، وجمال إحسانيّ، وجمال روحاني، وجمال جسمانيّ، إيماني، فرقاني، قرآني، أفعالي، أسمائي، صفاتي، ذاتي، حكمي، علمي، عملي، عيني، غيبي، فرقي، جمعي، وحداني، وجداني، كلي، جزئي، كسبي، وهبيّ، جُمْلي، تفصيليّ، عرشي، فرشي، جِناني، برزخيّ، مقيد، مطلق، شهوديّ، وجوديّ، جلوديّ، إلى غير ذلك مما يكشف للسالك في هذه المسالك بعد انمحاق ظلامه الحالك، وقد اجتمع جميع الجمال على وجه الشمول والعموم في السرِّ المكتوم والأمر المختوم، والدرّ المصون، والجوهر المكنون الحبيب الأعظم، والطبيب الأفخم ﷺ، إذ هو الغيب الذي لا يُدرى، والحرف الذي لا يُقرأ، على التفصيل والإجمال، لإحاطته بكل باب من أبواب الجمال والجلال والكمال على الكمال والكلام على تفصيل المقامات الجمالية ومنَصَّاتها يطول، فلنقتصر على ما أشرنا إليه، فإن الإكثار إلى الإملال يئول.

ولقد قلت في هذا المقام من النظام مشيرًا أن المكثر في المدح مُقلّ وإن أسهب، قاصر اليد عن الوفاء بما يستحقه الجناب العجيب الأعجب:

وصـفُ الـذي قـد أطنـبَ الإيجـازُ ... إذْ وصـفُكم لا يعتريـه نجـازُ

ولأنكـم بحـرُ الجـمالِ، وغـيرُكم ... لمّـا نُقـابلُهم بكـم أكـوازُ

حُـزْتُم جميـعَ الحـسنِ غـيرَ مقـسَّمٍ ... مـن أصـلِهِ والكـلُّ مـنكم حـازُوا

أحْـرزْتُمُ قـصبَ الـسّباق فَحُـزْتُمُ ... كـلَّ الكـمالِ وتُمّـم الإحـرازُ

---

(١) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٨/ ١٩٩).

أعْجزتُم كلَّ السورى عن دَركِكم ... فتحيّرت إذ جاءها الإعجازُ

فُزْتُمْ بكل حقيقةٍ ودقيقةٍ ... ورقيقةٍ والغيرُ فيكم فازُوا

ورَقَتْ بكم أطفالُ حضرةِ قربِكم ... فتفرَّدوا عن غيرِهم وانحازُوا

وتميزت أتباعُكم بتحجُّلٍ ... وبغُرَّةٍ حتى بذاك امتازُوا

وجوائزُ التقريبِ منكم أوْرَدَتْ ... ورادكم حيّ الهنا إذ جازُوا

فله الهنا عبدٌ لحيكمُ دنا ... وبحبّكم قَد جاءه الإعزازُ

يا سيّدًا ملك الجمال بأسره ... أنجزْ وعودي شأنُك الإنجازُ

أنت الأصيلُ وما عداك فنائبٌ ... أنت الحقيقةُ والسِّوى فمجازُ

كلُّ الجمالِ ملكت بل مَلَّكْتَهُ ... فالحسنُ عصفورٌ وأنت البازي

مَن أَمَّكُم أضحى غنيًّا موسرًا ... ما مسَّهُ في قربِكم إعوازُ

وفقيركم ذا مصطفى يرجو بأن ... تأتيه منكم حُلةٌ وطرازُ

كي يرتقي كي يستقي كالحاتمي ... وأبي سعيدٍ ذلك الخرّازُ

ثم الصلاةُ مع السلامِ عليكَ يا ... خيرَ السورى ما أورقَ الخُبَّازُ

والآل والأصحاب ما رمزٌ بدا ... بعد الخفا أو حُلَّت الألغازُ

(مُونِقَةٌ) بكسر النون: اسم فاعل من أَأْنق كأَعجب، أي: لزيادة حسنه، والمعنى: فرياض الملكوت بسبب نور جماله زائدة الحسن معجبة، ويصحُّ أن تكون بفتح النون اسم مفعول، أي: هو الذي بزهر جماله حسَّنها وأحكمها، والأول أولى، وقد شبّه حضرات الملكوت بمواضع ذات أنهار وأشجار تشبيهًا مضمرًا في النفس، ثم استعار لها ذكر الرياض، ووشّح بذكر الزهر فتكون الاستعارة مكنية ترشيحية، وكذلك الاستعارة الآتية.

(وَحِيَاضُ) جمع: حَوْض، قال في «المصباح»: حوض الماء جمعه: أحواض وحياض، وأصل حياض الواو لكن قلبت ياءً للكسرة التي قبلها مثل: ثوب وأثواب وثياب انتهى.

(الجَبَرُوتِ) فَعَلُوت -بالتحريك- مشتق من: الجبر، وهو القهر؛ لأنه العالم الذي يظهر فيه قهر الحق لكل ما سواه، وهو غير مهموز باتفاق كما في المصابيح، وهو من الجبر أي: القهر كما تقدم، أو من جَبَرْتُ الفقير: أغنيته، ويقال له عالم العقول والنفوس، وعالم البرزخ والخيال، وعالم العظمة، قال في «التعاريف»: الجبروت هو عند أبي طالب المكي عالم العظمة يريد به عالم الأسماء والصفات الإلهية، وعند الأكثرين عالم الأوسط، وهو البرزخ المحيط بالأمْريات الجمة[1]. انتهى.

وقلنا في «الألفية» التي جعلناها في التصوف في فَصْل الاصطلاحات:

والـــبرزخُ المحـــيطُ جـــبروت ... وعـــالمُ الغيـــوبِ ملكـــوت

والمُلـــكُ هـــذا عـــالَمُ الـــشهادةِ ... ينـــالُ مـــن يكـــشِفُه مـــرادَه

(بفيض) أي: بسبب فيض، والفيض في الاصطلاح على قسمين: فيض أقدس، وفيض مقدس، قال في «التعاريف»: الفيض الأقدس هو عبارة عن التجلي الحبّي الذاتي الموجب لوجود الأشياء واستعداداتها في الحضرة العلمية كما قال: «**كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف**»[2] الحديث.

---

(١) قال المصنف: واعلم أن العوالم أربعة:

- عالم الملك وهو الذي من شأنه أن يدرك الحس أو بالعقل مما يتأتى إدراكه.
- عالم الملكوت: وهو ما غاب عن الحسن وأدركته الروح.
- عالم الجبروت: هو برزخ جامع لظاهر الملك، وباطن الملكوت، ولهذا يسمَّى بالعالم الأوسط.
- وعالم العزة: وهو ما امتنع إدراكه بكل وجه بحيث انفرد الحق به. وقد يعبَّر عنه بعالم اللاهوت. فالأوَّل متعلقه الأفعال، والثاني عالم الأسماء والصفات، والثالث له وجه للأفعال ووجه للأسماء والصفات، والرابع متعلقه الذات العلية

(٢) الأصل في ذلك حديث: «**كنت كنـزًا مخفيًّا فأحببت أن أُعرَف فخلقت خلقًا فتعرَّفت إليهم فبي عرفوني**» ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٧٣).

فائدة عظيمة: فإن الذات الأقدس منطوٍ فيه نفائس جواهر الاسماء الذاتية التي هي عين ذاته الأقدس، وكونه مطلسمًا: أي لا يطَّلع عليه أحدٌ إلا هو تعالى، فإن من عادة الكنوز أن يوضع عليها أسماء روحانيين تُسمَّى بالطلسم، حتى لا يطَّلع عليها أحدٌ، ولا يظهر منها شيءٌ، إلا لمن كانت هي له، والطلسم هو طل اسم. قال الشيخ: هو مقلوب مسلط، ففي الكلام استعارة، حيث شبَّه ذاته الأقدس المنطوية على أسمائه =

=

الذاتية التي يرغب في تحصيل شيء منها كل أحدٍ، ولا يمكنه ذلك لغيبه بالكنـز المطوي على النفائس التي يرغب في تحصيل شيء منها كل أحدٍ، ولا يمكنه ذلك لوضع الطلسم: أي الحروف المهيأة عليه، المانعة من الاطِّلاع عليه. فقوله: «فبي» من حيث حساب الجُمَّل اثنان وتسعون، وعدد حساب محمد كذلك. فالمعنى من باب الإشارة فبمحمد ﷺ «عرفوني». أو المراد: فبظهوري عرفوني، وهو ﷺ أول مظهر. وأورد بعضهم: أن الخفاء من الأمور النسبية لابد فيه من مخفي، ومخفي عليه، لا يجوز أن يكون المخفي عليه هو الله تعالى؛ لأنه تعالى ظاهر بنفسه لنفسه عالم بذاته أزلاً وأبدًا. ولا يجوز أن يكون هو الخلق؛ لأنهم لم يكونوا موجودين في الأزل حتى يكون الحق مخفيًا عليهم. وفي الحديث: «كان الله ولم يكن معه شيء». والجواب بأن للأشياء وجودين وجودًا علميًا، ووجودًا خارجيًا. فالوجود العلمي: الأعيان الثابتة وهي أزلية قديمة. والوجود الخارجي: محدث، فخفاء الحق تعالى بالنسبة إلى الأعيان الثابتة في الأزل فلما أراد الله تعالى أن تعرفه الأعيان الثابتة أخرجها من الوجود العلمي إلى الوجود الخارجي لتعرف الله تعالى، يقتضي أن تعتبر الأعيان الثابتة مع الهوية الأحدية، وأن تساوقها، وليس كذلك بل الجواب الصحيح أن يقال: أن الخفاء كناية عن عدم عالم به سواه، فكأنه قال ﷺ:كنت كنـزًا غير معلوم لأحدٍ سواي، على أن الأمور الذوقية، والأسرار الإلهية لا يلتفت فيها إلى مثل هذا الإيهام. وانظر: شرح الصلاة الأكبرية للقادري (ص١١٥) بتحقيقنا.

وقال الشيخ الكتاني: وقد كان سبحانه قبل أن يخلق هذا العالم في خفاء كنـزيته وغيب هويته وبطونه الذاتي غير متعرف بقيد من القيود إلى من يحصل أو يأتي، فاقتضت حكمته الباهرة ومشيئته القاهرة أن يعرف المعرفة اللائقة بذاته، وأن يظهر أثر أسمائه وصفاته كما ورد في الحديث القدسي- قال في «الفتوحات»: الصحيح كشفًا، الغير الثابت نقلاً عن رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل أنه قال ما هذا معناه - «كنت كنـزًا مخفيًا لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفون»، انتهى.

وذكره في كتاب «الحجب المعنوية» أن الذات الهوية له بلفظ ورد في الكتب الإلهية قال الله تعالى كنت كنـزًا مخفيًا لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقًا فتحببت إليهم بالنعم حتى عرفوني.

وفي كتاب «عقلة المستوفز» أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال: يا رب لم خلقت الخلق؟ فقال له عز وجل: كنت كنـزًا مخفيًا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني.

وذكره سيدي علي وفا في كتاب «مفاتيح الخزائن العلية»، وابن غانم المقدسي في كتابه: «حل الرموز» وجماعة بلفظ كنت كنـزًا لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت وتعرفت إليهم فبي عرفوني. وذكره أبو زيد الفاسي في «تحفة الأكابر» أوائل الكتاب نقلاً عن الشيخ محيي الدين البوني ﷺ بلفظ: كنت كنـزًا لا أعرف، فخلقت خلقًا فتعرفت إليهم فبي عرفوني. قالوا: ومعنى قوله: خلقت خلقًا. قدرت أعيانًا تقديرية، فتعرفت إليهم بجلالي وجمالي، ودللتهم علي، فبي مني إليهم عرفوني، وكان هذا التعريف بلسان ترجمان القدم، وهو الحقيقة المحمدية التي هي أصل الكل. وقال الجيلي في «كمالاته» هذا حديث صحيح من طريق الكشف، ضعيف من طريق الإسناد. وقد أجمع المحققون يعني من أهل الله تعالى على

=

«والفيض المقدس»: عبارة عن التجلِّيات الأسمائية الموجبة الظهور بما يقتضيه استعدادات تلك الأعيان في الخارج، فالفيض المقدس مترتب على الفيض الأقدس، فبالأول: تحصل تلك الأعيان الثابتة واستعداداتها الأصلية في العلم، وبالثاني: تحصل تلك الأعيان في الخارج مع لوازمها وتوابعها انتهى.

وقلنا في «الألفية»:

والفيضُ مبدأه التجلّي الحبّي ... لأنه من فضل جُود ربّي

وأقدسٌ عَلا على المقدّس ... وعنهما بَدَت جميع الأنفس

(**أَنْوَارِه**) جمع: نور، ونوره ﷺ هو المفاض عليه من النور بواسطة اسمه النور، فهو النور الكلي الجامع الذي كان عنه مدد الظهور الهامع، ولَهُ سجدت لظهوره في آدم الأملاك، ودارت به الأفلاك، وبه الابتداء والنهاية، وإليه الرجوع في كل غاية.

(**مُتَدَفِّقَةٌ**) أي: متصببة، قال في «المختار»: والتدفق التصبّب، وجاء القوم دُفقة واحدة -بضم الدال- أي: مرة واحدة، انتهى.

قال الشارح -رحمه الله تعالى- قوله: (**فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة**) رياض الملكوت عبارة عن حضرة الأسرار، وهو ﷺ ظاهر في حضرة الأرواح بكماله فتأنقت، وفي حضرة الأسرار بأنواره فأشرقت.

«وزهر جماله» كناية عمَّا ظهر من جمال سرِّ النبوّة المحمدية في حضرة الأرواح، فظهر بذلك الجمال معاني آثار أسماء الأفعال، فظهرت عجائب الكون، وانكشف سره المصون، فتنزهت الألباب إذا انكشف الحجاب، ولما كان عالم الملكوت موطن مجال الأرواح، ومسرح الأفكار تنزهًا فيما تجلى فيه من معاني آثار أسماء الأفعال، سمِّي رياضًا لهذا الاعتبار، لكن إنما أينع وتأنق بزهر جمال المصطفى ﷺ أي: بما ظهر فيه من سر النبوة المحمدية، وكذلك حضرة

صحته، وذكره غير واحد منهم في مصنفاته، انتهى. وأما ابن تيمية فذكر أنه: ليس من كلام النبي ﷺ وأنه لا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه بدر الدين الزركشي، والحافظ ابن حجر وغيرهما. وقد وافقهم مؤلف «الإبريز» وقال: إنه لم يقله النبي ﷺ. ولعله أراد أنه لم يقله لفظًا، وإن كان له معنى، أو أنه من كلام الكتب الإلهية لا من كلامه ﷺ راجعه وراجع «المقاصد الحسنة» للسخاوي. وانظر: جلاء القلوب، وقاب قوسين (ص٨٤) بتحقيقنا.

الأسرار المعبر عنها بحياض الجبروت امتلأت بما أفاض فيها من أنواره عليه الصلاة والسلام، والتدفق عبارة عن كثرة فيض الأنوار المحمدية، انتهى.

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: (**وَلَا شَيْءَ**) (لا) نافية للجنس تعمل عمل إنّ، وتكون للنفي العام إذا دخلت على نكرة، و(شيء) اسمها، وخبرها محذوف تقديره: موجود، وجملة (**إِلَّا وَهُوَ بِهِ مَنُوطٌ**) حالية، و(شيء) أنكر النكرات كما أن الله أعرف المعارف.

قال في «المصباح»: والشيء في اللغة عبارة عن كل موجود إما حسًّا كالأجسام، وإما حكمًا كالأقوال نحو: قلت شيئًا، وجمعه: أشياء غير منصرف، واختلف في علّته اختلافًا كثيرًا، وَالْأَقْرَبُ مَا حُكِيَ عَنْ الْخَلِيلِ أَنَّ أَصْلَهُ: شَيْئَاءُ وِزَانُ: حَمْرَاءَ، فَاسْتُثْقِلَ وُجُودُ هَمْزَتَيْنِ فِي تَقْدِيرِ الِاجْتِمَاعِ؛ فَنُقِلَتْ الْأُولَى أَوَّلَ الْكَلِمَةِ فَبَقِيَتْ: لَفْعَاءُ كَمَا قَلَبُوا: أَدْؤُرٌ، فَقَالُوا: آدُرٌ، وَشِبْهِهِ وَتُجْمَعُ الْأَشْيَاءُ عَلَى: أَشَايَا. انتهى.

(**إِلَّا**) أداة حصر (**وَهُوَ**) أي الشيء (**بِهِ**) ﷺ (**مَنُوطٌ**) أي: متعلق. قال الشارح -رحمه الله تعالى-: أشار إلى تعلق جميع الأشياء به ﷺ، منها ما هو متعلق به تعلق الاستناد، ومنها ما هو متعلق به تعلق الاستمداد، فكل شيء إليه استناده ومنه استمداده. انتهى.

ولمّا ذكر أن رياض الملكوت وحياض الجبروت بسببه زاد جمالها وتدفق كمالها ثم عطف بقوله: (ولا شيء) فدخل كل شيء ثم أثبت بحرف الاستثناء تعلق سائر الأشياء به ليفهم أن كل شيء لا ينفكّ عنه ﷺ؛ لأن إمداده ليس إلا منه، أخذ في تعليل هذا التّعلق فقال -رحمه الله تعالى-: (**إِذْ لَوْلَا الوَاسِطَةُ**) الذي هو نبينا ﷺ؛ لأنه واسطة سائر الوسائط، فهو هنا المراد على الحقيقة، وإذا أُطلق اسم الواسطة لا ينصرف إلا له على الكمال والحقيقة ولغيره على المجاز، (**لَذَهَبَ**)[1] أي: لفني وانعدم، (**كَمَا قِيلَ**) أي: كما قال أحد السادة (**المَوْسُوطُ**) الذي هو العالم بما فيه، فلولا تعلق الأشياء واستنادها واستمدادها منه وإمداده لها بواسطة وبدون واسطة لما ثبتت، بل فنيت وزالت في أسرع من لمح البصر، فإن إمداده ﷺ لها عين إمداد الحق؛ إذ هو المتلقي منه والمتلقى عنه، كما أن إمداده بالواسطة عين إمداده بدونها.

قال الشعراني ﷺ في كتابه «الجواهر والدرر»: وقال – أي: الوارد -: الأوتاد الأربعة نوّاب للأوتاد الأربعة الحقيقية: إدريس وإلياس وعيسى والخضر عليهم الصلاة والسلام،

---

(١) قال المصنف أي: مرَّ كلمح البصر، وانمحى وفني، وانعدم، واندحا.

والواحد من إدريس وإلياس وعيسى والخضر هو القطب، وبهذا الواحد يحفظ الله الإيمان، وبالثاني يحفظ الله الولاية، وبالثالث يحفظ الله النبوة، وبالرابع يحفظ الله الرسالة، وبالمجموع يحفظ الله الدين الحنيفي، وأكثر الناس لا يعرفون القطب والإمامين والوتد إلا النواب لهؤلاء المرسلين الذين ذكرناهم، ولذلك يتطاول كل ولي لنَيْل هذه المقامات، وإذا أُعْطَوْها عرفوا عند ذلك أنهم نواب، فالقطب لا يموت أبدًا، أي: لا يُصعَق، ولا تزال الرسل موجودين في كل زمان فردٍ إلى يوم القيامة، ولكن الله تعالى أخفى حكمهم وأظهره في الأتباع من الأولياء فاعلم ذلك. انتهى.

وقوله: «فالقطب لا يموت أبدًا» أي: لا يصعق، بمعنى لا يغشى عليه عند النفخ؛ لأنه أحد هؤلاء الأنبياء، فيكون ذلك لحكمة إلهية كالذين استثناهم الله، أو لعلّه يشير بذلك إلى قطب الأقطاب الذي هو نبينا ﷺ، فإنه لا يصعق كغيره، وإن صعق فصعقه صوريّ كموته وخوفه، وإذا كان الكليم لا يصعق، فالسيّد الحبيب بذلك أحق، فإن موسى عليه السلام قد شك في أمره نبينا ﷺ هل حُوسِبَ بصعقته في الطور فلم يصعق أم بُعث قبله؟، والحديث الوارد في ذلك قوله ﷺ: «**لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ الله؛ فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى**»[1] رواه البخاري ومسلم.

قال سيدي محيي الدين رضي الله عنه في الباب (٣٩٧) من «فتوحاته»: اجتمعت روحي بروح موسى عليه السلام في بعض الوقائع التي وقعت لي فقلت له: يا نبي الله، سألت الرؤية ورسول الله ﷺ يقول: «**إن أحدكم لا يرى ربه حتى يموت**»، فقال موسى عليه السلام: وكذلك كان؛ فإني لما سألته الرؤية وأجابني خررت صعقًا فرأيته تعالى في صعقتي، قلت له: موتًا؟ قال: موتًا، قلت: فإن رسول الله ﷺ شك في أمرك إذا وجدك يوم القيامة متعلقًا بقائمة العرش، وقال: «لا أدري أجوزي بصعقته أم كان ممن استثنى الله»، فقال عليه السلام: «جازاني الله بصعقة الطور فلم أُصْعَق عند النفخ، فما رأيت ربي حتى مت، فلما أفقت علمت من رأيت؛ ولذلك قلت: تبت إليك، فقلت له: يا نبي الله، إن الله دلّك على رؤية الجبل، وذكر عن نفسه أنه تجلى للجبل،

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٥٤)، ومسلم (٤/ ١٨٤٣).

فقال ﷺ: صحيح ذلك لا يثبت لتجلّيه تعالى شيئًا فلابد من تغير الحال، فكان الدك للجبل كالصعق لي، فالذي دكّه صعقني»[١] انتهى.

قال الشعراني ﷺ بعدما نقل هذه الواقعة في «الجواهر والدرر» الذي جمعه من كلام شيخه سيدي علي الخواص: فقلت لشيخنا ﷺ: فلم يرجع موسى إلى صورته حين خرّ صعقًا، ولم يرجع الجبل بعد الدكّ إلى صورته؟ فقال: إنما زالت عين الجبل لخلوّه عن الروح المدبّر له بخلاف موسى لم تزل صورته حين خرّ صعقًا؛ لكونه كان ذا روح، فروُحُه أمسكت صورته على ما كان عليه بخلاف الجبل لم يرجع بعد الدكّ إلى كونه جبلاً؛ لأنه لم يكن له روح تمسك صورته والله أعلم، انتهى.

وحكمة عدم صعقه أنه الواسطة في إمداد روحانية الموجودات جميعها؛ فلو صعق كغيره انقطع عنها الإمداد، وقد استثنى الحق أشياء قد شاء عدم صعقها، ولابد لها في وصول مدد البقاء من واسطة؛ فإن الحق تعالى لا ينظر إلى خلقه إلا بواسطة الإنسان الكامل، ولا أكمل منه ﷺ.

قال الشعراني -رحمه الله تعالى-: سمعت شيخنا ﷺ يقول: مستَمَدُّ جميع أرواح الأنبياء والأولياء من روح محمد ﷺ؛ إذ هو قطب الأقطاب أولاً وآخرًا، إذ هو مُمِدّ لكل نبيٍّ، ووليٍ سابقٍ عليه على حسب الظهور، والزمان حال كونه في الغيب، ومُمِدّ أيضًا لكل وليٍّ لاحقٍ به، فيوصله بذلك الإمداد إلى مرتبة كماله حال كونه موجودًا في عالم الشهادة، وفي حال كونه متنقلاً إلى الغيب الذي هو البرزخ ودار الآخرة، فإن أنواره ﷺ غير منقطعة عن العالم من تَقَدَّمَهُ ومن لَحِقَهُ، لقوله ﷺ: «**أول ما خلق الله تعالى نوري**»[٢]، وفي روايةٍ: «**أول ما خلق الله العقل**»[٣] ومعناهما واحد، فإن حقيقته ﷺ تارةً يعبّر عنها بالعقل الأول، وتارةً بالنور، انتهى.

قال شارح «الدلائل»: وأما اسمه ﷺ وكيل، فيحتمل أنه بمعنى كفيل وزعيم، وغلبه تفسير بعضهم بأنه كفيل وضمين للمطيعين بالجنة، ويحتمل أنه بمعنى الموكول والمفوّض إليه الأمر والقائم به، ثم يحتمل مع ذلك أن يكون إشارة إلى توليه التصريف في الكون على سبيل

(١) رواه الحكيم الترمذي في «النوادر» (٣/ ٢٠٩).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) رواه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ١٩٠).

الخلافة والنيابة، وذلك مما لا شك في ثبوته، وحصوله للنبي ﷺ على وجه أخصّ مما ثبت منه لغيره، وإنما ثبت ما ثبت منه لغيره بتوليته ﷺ والتبع له، كيف وهو ﷺ الخليفة الأكبر، والواسطة في الدارين، والرابطة للمخلوقين ويحتمل أن يكون المراد التفويض إليه في الأحكام الشرعية باجتهاده حسبما ذكروا في خصائصه أنه يجوز أن يقال له: «احكم بما تشاء فما حكمت به فهو صواب موافق لحكمي» على ما صَحَّحه الأكثرون في الأصول، وليس ذلك لغيره انتهى.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ**﴾ [المائدة:٣٥].

قال القاضي: أي: ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، من وَسَل إلى كذا تقرَّبَ إليه، وفي الحديث: «**الوسيلة منزلة في الجنة**»(١)، ﴿**وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ**﴾ بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ بالوصول إلى الله والفوز بكرامته، انتهى.

والوسيلة في اللغة والاصطلاح: هو ما يتقرب به إلى الغير، والجمع: وسل ووسائل، والمراد به كل من يدنيك من الحق ﷻ ويكون واسطة بينك وبين مطلوبك، وقد قال أحد العارفين: لولا الوسائط كنا من البسائط، جمع: بسيط.

قال في «التعاريف»: البسيط على ثلاثة أقسام: حقيقي: وهو ما لا جزء له أصلاً كالباري تعالى، وعرفي: وهو ما لا يكون مركبًا من الأجسام المختلفة الطباع، وإضافيّ: وهو ما تكون أجزاؤه أقلّ بالنسبة إلى الآخر.

والبسيط أيضًا روحانيّ وجسمانيّ، فالروحاني كالعقول والنفوس المجردة، والجسماني كالعناصر. انتهى.

فقوله: كنا من البسائط، أي: غير مركبّين، لكن بالوسائط تركبنا وظهرت صورنا على أتم نظام، وكذلك وسائط التقريب لابد لنا منهم وإن كان بعض الناس لا يكون أخذه عن واسطة بحسب الظاهر لكن لابد له من واسطة من حيث الباطن، كأهل الجذب؛ لأن

(١) رواه البيهقي «الكبرى» (١/ ٤٠٩).

النفحات الربانية هي التي جذبتهم فهي الواسطة في جذبهم وتقويتهم، والواسطة في وصول كل ما وصل إليهم سيّد الوسائط الذي مرجع الكل إليه.

قال الشعراني ﷺ في «الميزان»: أمّا سلوكك بغير شيخ، فلا يسلم غالبًا من الرياء والجدال والمزاحمة على الدنيا ولو بالقلب من غير لفظ، فلا يوصلك إلى ذلك ولو شهد لك جميع أقرانك بالقطبية فلا عبرة بها، وقد أشار إلى ذلك الشيخ محيي الدين في الباب (٧٣) من «الفتوحات» فقال: من سلك الطريق بغير شيخ ولا ورع عمَّا حرَّم الله، فلا وصول له إلى معرفة الله تعالى المعرفة المطلوبة عند القوم، ولو عَبَد الله تعالى عُمر نوح عليه السلام، ثم إذا وصل العبد إلى معرفة الله تعالى، فليس وراء الله مرمى ولا مرقى بعد ذلك، وهناك يطّلع كشفًا ويقينًا على حضرات الأسماء الإلهية، ويرى اتصال جميع أقوال العلماء بحضرة الأسماء، ويرتفع الخلاف عنده في جميع مذاهب المجتهدين لشهود اتصال جميع أقوالهم بحضرة الأسماء والصفات لا يخرج عن حضرتها قول واحد من أقوالهم. انتهى.

وقد أجمع الأشياخ على أن من لم يصح له نسب القوم فهو لقيط، وفعله وقوله تخليط وتخبيط، فإن السير بغير دليل يوقع السيّار في التهاويل.

وقد أنشد سيدي عبد الكريم الجيلي -قدس الله سره- في عينيّته قوله:

وشـــمِّرْ ولُـــذْ بالأوليـــاءِ فـــإنهمُ	لهـــم مـــن كتـــابِ اللهِ تلـــك الوقـــائعُ
هـــم الـــذخرُ للملهـــوفِ والكنـــزُ للرّجـــا	ومـــنهم ينـــال الـــصَّبُّ مـــا هـــو طـــامعُ
بهـــم يُهتـــدي للعـــين مـــن ضـــلَّ في العمـــى	بهـــم تجـــذبُ العـــشاق والرَّبـــع شاســـعُ
هم الـــسُّؤلُ والمطلـــوبُ والقـــصدُ والمنـــى	واســـمهمُ للـــصَّبِّ في الحـــبِّ شـــافعُ
هم الناس فالزم -إن عرفـت- طـريقَهم	ففـــيهم لـــضرّ العـــالمين منـــافعُ

قال شيخنا الهمام الشيخ عبد الغني المقدام في شرحه على «العينية»: ثم أمرك أن تلوذ بجناب الأولياء ﷺ إذا ظفرت بهم، وتخدمهم بالتقوى والإخلاص والمحبة والإطاعة والاحترام على كل حال، فإن بهم تنكشف لك حقائق الموجودات، وتنحل لك كل المشكلات، ويذهب عنك كل زيغ وجهل وضلال، وتدرك بهم درجة اليقين، وتحصل على

زيادة الدين، فالزم طريقهم، وسِرْ على سيرهم إن عرفتهم، وتفضّل الله عليك بمعرفتهم، وإن أعمى بصيرتك عنهم، فإياك أن تنكرهم؛ لأنهم كثيرون في الأرض لا تخلو منهم بلدة من البلاد، ولا قرية من القرى في كل زمان على اختلافهم في السلوك والمعرفة الإلهية، ولكن الغالب عليهم في هذه الأزمان الخفاء الضروري وعدم الظهور لفساد مقاصد أكثر الناس وخبث نياتهم وسوء ظنونهم بمن عرفوه ومن لم يعرفوه، فلو ظهروا لجُحِدَتْ أحوالهم، وأُنكِرَت أعمالهم، ونُسِبُوا على ما هم بريئون منه، ونُبِذوا بكل قبيحة من كل مغرور في دينه ودنياه بعلمه أو بعمله من خواصِّ هذا الزمان وعوامِّهم ولكن الذي يتعين عليك أيها السالك إذا لم تظفر بأولياء الله تعالى أن تحسن عقيدتك في كل من تراه من الفقراء المواظبين على التقوى بحسب قدرتهم، ولا تحتقر أحدًا منهم؛ فإن الجميع تحت تصاريف قدر الحق تعالى، ولأجل عينٍ ألف عينٍ تُكْرم، انتهى.

وطريق من وجد من قلبه إرادة صادقة للسلوك في طريق ملك الملوك ولم يجد مسلكًا بحسب الظاهر- أن يلتجئ إلى الباطن الظاهر، ويرفع إليه أمره، ويشك له ضرَّه، ويتشفع عنده بأكرم الخلق عليه، وأعظمهم قدرًا وجاهًا لديه، ويتوسل بأسمائه وصفاته ورفعة ذاته أن يدلَّه على من يدلُّهُ عليه، ويوصله إلى من يوصله إليه، وليحذر أن يلقي نفسه إلى كل من يلقاه من المتمشيخين، لا سيما في هذا الزمان الذي كثرت فيه أهل الدعاوى، واختفت فيه أهل العرفان، بل يكثر من الاستخارة، ويستعمل الاستشارة، فما خاب من استخار، ولا ندم من استشار، إلى أن ينشرح صدره إلى أحد المُعَيَّنين، إما برؤية منامية أو دلالة أحد من رجال الغيب فيدخل على يقين، ولهذا استحب أهل طريقنا أمر المريد بالاستخارة التي بالمُراد ناطقة؛ ليدخل المريد بهمّة عليّة صادقة.

قال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في «شرح اليوسفية» المشتملة على جملة وفيّة من آداب الصوفية: فإن المتمشيخ يظهر بصورة من غير علم ولا تحقق، وهذا في هذا الزمان كثير، فقلّ أن ترى شيخًا في هذا الزمان عالمًا بالشريعة وأسرارها فافهم، فهم من الشيخ كالمتنبي من النبي، وكالمتطبّب من الطبيب، فيكون الهلاك للأتباع أسرع شيء وما عند المُريد علم بذلك، فكيف التخلص من ذلك؟ فهذا المُريد إذا نظر فيما قلناه وقع في حيرة عظيمة لجهله بالعلم الموصل إلى الله وليس إلا الشرع المنـزل، ولكن نرجو إن شاء الله- بل أقطع- إذا صدق المُريد في طلبه ربه أن الله ﷻ يوقعه على شيخ هو شيخ حقيقة على بصيرة من الله، وإن لم

يوجد في الموضع الذي يكون فيه هذا المُريد ويقع على مُتَمَشْيِخ فإن الله تعالى -بصدق المُريد- يفتح على هذا المتمشيخ بالفتح المطلوب في حق هذا المُريد وتخليصه، فيكون الشيخ مجبورًا على الحق، ويستفيد بسبب هذا المُريد علومًا لم يكن يعرفها وربما يكون له فيها المهداة فينتفع الشيخ، وهذا مما أجمع عليه أهل الله سبحانه، انتهى.

فالمدار على صدق المُريد في الطلب، وحسن الانقياد والاعتقاد والأدب، فمن وفقه الله لذلك سهَّل له طريقًا إلى من يرشده أحسن المسالك، ويعرفه بدسائس نفسه، ويسقيه من شُريبات أنسه، ويدخله حضرات قدسه، ويصيره ابن وقته لا ابن غده وأمسه.

ولمّا كانت المعرفة واجبة كان طلب الموصل إليها واجب، فلا ينبغي أن يتعلّل الطالب بعَلَّ وعسى، فإن التَعَلُّلَ حاجب، بل يُبادر في التوجه إلى مولاه الذي بكل جميل أولاه، ويسأله بخالص الطّويّة والنية أن يمهّد له طريق المعرفة الخاصّة العليّة، ويوقعه بمن يكون ارتفاع حجابه على يديه، ويرزقه حسن الإقبال والصدق إذا عثر به ووصل إليه، ويلهمه أن يؤمره على نفسه الأمّارة؛ ليخلّصه من ورطة الرياسة وطلب الإمارة، ويخرج عن طاعتها، ويجتهد في مجاهدتها.

فقد قال أحد السادة: لأن يكون المُريد تحت حكم هِرّة خير له من أن يكون تحت حكم نفسه. وقال آخر: كل من لا شيخ له فالشيطان شيخه.

وقد قلنا في الألفية:

ولُذْ بساقيَ الحيّ حيّ الراحِ ... وكاسه خذ فرحةً بالراحِ

فإنّ من لم تسقِه الأبطالُ ... من الرحيق ذلك البطّالُ

ومَنْ بنفسه سرى لقيطُ ... وفعله وقوله تخبيطُ

وكل من ليس له شيخٌ فذا ... شيطانُه عليه من جهلٍ هَذَا

وإنَّ في التلقين والمبايعةِ ... سِرًّا تُسَرُّ فيه نفس طائعة

متى يحرّك المُريد السلسلة ... تأتي إليه من رجالها الصلة

ومن بدون وصلة يحرَّكُ ... ما نالَ شيئًا وعليه الدَّرَكُ

وفـــيهما سِرُّ ارتبـــاطِ القلـــبِ بـــآخرٍ والـــصدقُ عنـــه يُنْبِـــي
وباتّحـــادٍ كـــلِّ واحـــدٍ هُنَـــا للثـــانِي يـــدعوهُ بحـــقٍّ يـــا أنـــا
لـــيس لنـــا بـــدٌّ مـــن الوســـائطِ لـــولا هُـــمُ كنّـــا مـــن البـــسائطِ
طُـــرْقُ الهـــدى لا تـــسلكنَّ فيهـــا بـــلا دليـــلٍ قـــد درى خافيهـــا
فـــربما وَقَعْـــتَ[1] في المهالـــكِ إن لم تَـــسِرْ بِـــسَيْرِ ســـار ســـالكِ
وإن تَـــسِرْ مـــن غـــير مـــا دليـــلِ وقعـــت في التـــشبيه والتعطيـــلِ
نهـــج المنـــى مقـــيلا فإنـــه قـــد أمّ جبرائـــيلا
كـــذا الكلـــيم أمَّ - يـــاذا - الخِـــضْرا وهـــو أعـــزُّ منـــزلاً وقـــدرا
وذا زمـــانٌ فيـــه قـــد طـــاب الخَفَـــا وهـــو كـــما علمتَـــه حـــي الـــصفا
وفيـــه أنـــوار أولي الـــصدق اختفـــتْ حتـــى رســـومهم مـــن الـــبلى عَفَـــتْ
وكلمـــا أظلمـــت الأكـــوان ضـــاء بنـــور ربـــه الجنـــان
فـــإن تجـــد مُـــسَلِّكًا فهيّـــا أو مـــسلكًا نحـــو الـــصلاة حيّـــا
والـــنفس دع كـــتركِ أهـــل الغِـــرَّة وادخُـــل ولـــو مـــن تحـــت حكـــم هِـــرَّة
فإنـــه خـــيرٌ مـــن التَّفَلُّـــتِ والقلـــبَ صُـــنْ في الحـــبّ عـــن تَلَفُّـــتِ
وكـــن لمـــن ربَّـــاك ذاكـــي الحـــسَبِ منتـــسبًا واحفـــظ حقـــوق النـــسَبِ
و كنـــه لمـــن إلى الغـــير انتـــسب دون إليـــه جـــاءوا واحـــذر العَطـــب
واعـــرف حقـــوق الوالـــد النـــصوحِ مَـــن قـــد حبـــاك منـــهُ بـــالفتوحِ
واشْـــكُرْهُ، مـــن لم يـــشْكرنَّ للنـــاس لم يـــشكر الحـــقَّ وعهـــدًا نـــاسي

واعلم أيها الأخ - خلد الله عليك الإنعام، وخلّقك بصفات الكمال، ونجّاك من سمات

(١) في الأصل (تقع).

الأنعام - إن طريق القوم منهج واضح، ونوره لضياء الغزّالة فاضح، مؤيَّد بالكتاب والسنة، فتوجه من عين المنّة، فالجِدّ والاجتهاد سبب لصقال مرآة الفؤاد، الذي من كشف له عن وسعه قال في عُشْرِ عُشْرِ عُشْرِهِ ألف وادٍ، لا يحتاج واصفه إلى دليل؛ لأنه نهار ظاهر غني عن التمثيل، كما قيل:

ولـــيس يـــصحُّ في الأذهـــان شيء إذا احتـــاج النهـــار إلى دليـــل

وهو الجناب المقدّس، واللّباب الأقدس، والسرّ الذي لا يُعبَّر عن سرِّه ولا يُشْرح إلا بالإشارة والذوق لمن في واديه يَسْرح، كما قال من صرَّح في مقاله إذا طاب له المسرح:

ولـــيس جنـــابُ القـــدسِ إلا لأهلِـــه ومـــا كـــل إنـــسانٍ بواديـــهِ يـــسرحُ

وهو المسك الفائح، والعرف البائح، فاشْتَمَّ شذاه العاطر، وبالروح في طلبه خاطِرْ، كما قال العارف الذي سحاب فيضه ماطر:

وخاطـــرْ بـبَـذْل الـروح في طلـب المنـى فـــما فـــاز باللـــذّات إلا المُخـــاطِرُ

وكيف يصح منك إذا كنت مزكومًا إنكار طيب الحما، وهو قد تضوّع نَشْره، وانتشر في الأرض والسماء. قال المقيم السابح، والضاحك النَّائح، والصامت الصَّائح، والكاتم البائح:

فـإن كـــنتَ مَـزْكـومـــًا فلـيس بِلائِـقٍ مقالُـــك إنّ المـــسك لـــيس بفـــائحِ

وقـــد أحـــسن القائـــل الـــساري الفـــائق درّ كلامـــه عـــلى الـــدّراري

وإذا كنـــــتَ بالمنـــــاظر غِـــــرًّا ثـــم أبـــصرتَ حَاذقًـــا لا تمـــارِي

وإذا لم تـــــرَ الهـــــلالَ فـــــسلِّمْ لأنـــــاسٍ رأوْه بالأبـــــصارِ

فجرِّدْ سيف العزم، وتدرّع بدرع الحزم، واركب جواد الهمّة في قطع الطرق المدلهمّة، واتبع دليل المركب في سيره، واعدل عن اللاحي متى لاح، وارفق بنفسٍ منك فالرفق ذا بالٍ يا رواح لمن راح، وقد حقّ لمن فاته السير في مناهج الخير أن يجري الدموع دمًا، ويعرض عن المُلاَّح والدُّمى، ويقرع سنّ الندم على سنٍّ مضى وفيه لم يتقدم، وينصف من نفسه العارف، ويتصف بقول الغارف في بحر المعارف:

على نفسه فَلْيَبْكِ من ضاع عمرُهُ ... وليس له منها نصيبٌ ولا سهمُ
وحُقَّ له أن يتأوّه إذ يتفوَّه ... وأن ينوح وقد أبلى به الندمُ
على سكرةٍ منها ولو عمّر ساعةٍ ... يرى الدهر عبدًا طائعًا ولك الحكم

وإذا دبَّت فيك نشأة حبّة المحبّة، وشربت من صهبائها وزن حبّة، ولدغك عقرب التّوق، وردعك رادع الشّوق، فجُلْ في عالم فكرك على مرشد يرشدك لشكرك حالة سكرك، ويعرفك بحقيقة نسيان ذِكْرك من ذِكَرك، ويحميك بسطوة حاله، ويدلك على الله بحسن مقاله، وقلنا في أوائل «الألفية»:

وقبل كُلٍّ[1] فاطلب الأستاذا ... فإن تجده تلتق عياذا
فإنه حصن الفتى والبابُ ... وعنده الأسرار واللبابُ
فاصدُق إذا ألفيتَهُ دليلاً ... وقُمْ لدى أعتابِهِ ذليلاً
واصبر إذا رمت ترى الجميلا ... صبرًا يكون عنده جميلاً
وكلُّ من لم يتخذ إمامًا ... لم يكُ قطُّ سائرًا أمامًا
وفي السُّرى[2] يخبط خبط عَشْوَا ... وقلبه من نار جهل يُشْوَى
وإنَّ من يصعدُ من غير دَرَجْ ... يُخشَى عليه في وقوعه العَرَجْ
لابُدَّ من شخص يرى شخوصَها ... لشاخصٍ ويوضِحَنْ نصوصَها

وقد جال جواد البيان في ميدان شرح طريقة الأعيان التي لابُدَّ فيها من الواسطة والدليل لكل إنسان، ولنذكر عبارة الشارح، فإنها مختصرة مفيدة محررة سديدة، قال -رحمه الله تعالى-: قوله «**إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط**» يشير إلى اعتبار وجوده ﷺ في الوجود مبتغى الموجود؛ إذ لولا وجوده ﷺ لما وجد الوجود، ويشهد له: لولاه لم تخرج الدنيا من العدم، فنسبته منه كنسبة الواسطة على الموسوط. انتهى.

---

(١) في الأصل (وقبل كل شيء).
(٢) في الأصل: (في السرى).

وقال المؤلف -رحمه الله تعالى-: (صَلَاةً) منصوب بصلّ المتقدم على أنه مفعول مطلق (تَلِيقُ) أي: تصلح وتناسب مقامه الشريف، (بِكَ) بجنابك لجنابة (مِنْكَ) فإنك العالم بمقامه ومراق (إِلَيْهِ) أي: وأوصل ثواب هذه الصلاة إليه (كما) الكاف للتشبيه، ويحتمل أن تكون للتعليل أي: لأهليته، و(كَمَا) مصدرية، فالمشبه به الصلاة بمعنى المصدر، أو موصولة فالمشبه به الصلاة بمعنى المفعول (هُوَ أَهْلُهُ) أي: مستحق له ومتأهل باختصاصه إياه لكرامته عليك.

قال الشارح -رحمه الله تعالى-: هذه أفضل صلاة وأتمها وأشرفها وأعظمها وأكملها، إذ لا يليق من الرب العظيم إلى النبي الكريم إلا ما هو عظيم، وهو ﷺ أهل لأن يعامل بالكمالات، ولو قال ﷺ: كما أنت أهله لكان أكمل انتهى.

ثم قال المؤلف ﷺ: (اللَّهُمَّ إِنَّهُ سِرُّكَ الجَامِعُ الدَالُّ عَلَيْكَ وَحِجَابُكَ الأَعْظَمُ القَائِمُ لَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ).

(اللَّهُمَّ إِنَّهُ سِرُّكَ الجَامِعُ) فإنه جمع بين شهد الأسماء والصفات تحقّقًا وتخلّقًا، وبين مشهد الذات تعلقًا، وجمع بين مشهد الخَلْقية والحقّية في آنٍ بحيث لا تشغله مشاهدة الخلق عن الحق، وجمع كل ما تفرق من الكمالات في الأنبياء والمرسلين وزاد عليهم بما خصّه به الحق المبين، وهو الذي جمع الله فيه كل ما في العالم، فهو الحقيق بقول القائل:

ولـــــيس عـــــلى الله بمـــــستنكَرٍ أن يَجمـــــع العـــــالَمَ في واحـــــدِ

بل جمع فيه كل ما في العوالم، فقد قيل: إنها ثمانية عشر ألف عالم، وقيل أكثر، فإنه واسطة إمدادها، ونقطة دائرة إسعادها وإرشادها.

قال شارح «الدلائل»: وأما اسمه ﷺ (جامع)؛ فلأنه ﷺ الجامع لما افترق في غيره من الأنبياء والرسل- عليهم الصلاة والسلام- وكذا الأولياء والعلماء ﷺ، وكيف لا؟ وهم صور تفصيله، وخلفاؤه، ومظاهر تعيناته، فما منهم إلا وهو سابح في نوره، وممتدّ من بحره كلٌّ على حسب مقامه، ولكل خير وبركة قلّت أو جلّت منه حصلت وبطلعته ظهرت، وعنه امتدّ الوجود كله كما امتد الشجرة عن البذرة، وهو بذرة الوجود، وأقرب موجود، ويعسوب الأرواح، وهو الروح الأعظم، وآدم الأكبر، وهو ذو الكلمة الجامعة، والرسالة المحيطة، وهو الجامع للخلق على الله، والجامع لشملهم بتأليفه بنيهم، وجمع شتاتهم، والجامع لدوائر

الخيرات والرسالات والنبوّات والحقائق العيانية، وأسرار التوحيد الربانية، وجوامع الغيوب الفردانية انتهى.

وإنما كان سره الجامع؛ لأن اسمه الذي غلب عليه اسم الجامع المنطوي تحت حيطته كل ما عداه من الأسماء، فله الهيمنة عليها، فهو كالقلب في وسعه سائر الأشياء، لأنه وَسِع تجلّي الحق، ولم تَسَعْهُ السماوات والأرض، فهو صاحب الوسع الإلهي الذاتي، وسواه ليس له إلا الصفاتي، فجمع الكمالات الحقّية والخلْقية، وقد استدار زمانه كهيئته أول يوم خلقه الله، فإن قوسي دائرة الوجود أحدهما ينسب للخلق، والثاني للحق، قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى* فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:٨، ٩] و(أو) معناها هنا التفصيل كقوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس:١٢] أي: تارة كذا وتارة كذا، فهو ﷺ تارة في مشهد الـ﴿قَابَ﴾، وتارة في مشهد ﴿أَوْ أَدْنَى﴾؛ لكن مقامه الذي خصّ به أو أدنى، وتنزل للمشهد القابي تدلى، فإن مقام أو أدنى لا يدانيه أحد على الكمال غيره ﷺ، وقد قلنا في «الألفية»:

خوخــة أو أدنــى فهــذي لا تُــرى ... مفتوحــةً إلا لــسيد الــورى

عــلى الكــمال وســواه يَقْتــبِسْ ... مــن نــورِهِ ونــورُهُ لا يلتــبس

واستدارة الزمان: عبارة عن انعطاف دائرة الرتبة الأولية على الآخرية وإحاطته بهما وجمعيته لهما.

قال الجيلي ﷺ في «الكمالات الإلهية»: فرسول الله ﷺ هو الذاتي الوجود، وما سواه فصفاتيّ الوجود، وذلك أن الله تعالى لما أراد أن يتجلّى في العالم اقتضى كماله الذاتي أن يتجلى في أكمل موجود ذاتي، فخلق محمدًا ﷺ من نور ذاته؛ لأن العالم بأجمعه لا يتسع تجلّيه الذاتي؛ لأنهم مخلوقون من أنوار الصفات، فهو في العالم بمنزلة القلب الذي وسع الحق، وإلى هذا أشار ﷺ بقوله ﷺ: «**إن يس قلب القرآن**»[1] ويس اسمه، أراد بذلك أن النبي بين القلوب والأرواح وسائر العوالم الوجودية بمنزلة القلب من الهيكل، وبقية الموجودات كالسماء والأرض التي لم تَسَعْ الحق، قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: «**ما وسعني أرضي ولا سمائي**

(١) رواه أحمد في المسند (٢/ ٤٨٠).

ووسعني قلب عبدي المؤمن»[1].

فالأنبياء والأولياء والملائكة وسائر المقربين من سائر الموجودات ليس عندهم، وسع المعرفة الذاتية ومحمد ﷺ الذي هو قلب الوجود هو الذي عنده الوسع الذاتي للمعرفة الذاتية، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «**لي وقت مع الله لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل**»[2] فجعلهم بمنزلة السماء والأرض، فالملك من أهل السماء، والنبي المرسل من أهل الأرض، فكلاهما لم يسع الحق بالذات ويَسَعا الحق بالصفات، ووَسِعَه القلب الذي هو يس؛ لأن القلب يَسَع من المعرفة الإلهية ما ضاقت عنه السماوات والأرض، فوسع النبي ﷺ تجلّيه الذاتي الذي ضاقت الموجودات عن ذلك.

قال: وهذه المسألة لقنيها رسول الله ﷺ بحجَجِها التي ذكرتها في هذا المكان، وبعد أن أمليتها في هذا الكتاب أشار إلى أن أذكر تلقينه لي في هذا الموضع وأسند ذلك إليه كما وصفته ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ [الكهف:٢٩] انتهى.

فعلم -كما أسلفنا- أنه الجامع على الحقيقة، وجمعية غيره مجازية نسبية.

(**الدَّال عليك**) إذ هو الدليل الذي اتضح به السبيل، فَمَحَا بنور وجوده ودعوته العامة ظلام الشرك الدّاجي، وأنار بطلعته التامّة سائر الأملاك والأفلاك والأبراج، فهو المنهاج الذي به الاقتداء، والسراج الذي به الاهتداء، والدليل الهادي إلى الصراط المستقيم، والداعي إلى الله على بصيرة والطريق القويم، سائق الأبرار إلى دار القرار، والهادي ببيانه إلى منازل الأخيار، دليل الخيرات، ومُقيل العثرات، فليس في الأدلاّء، وإن كثروا أصيل، وإنما هم نُوّاب ومقتبسون من الدليل، قال الأبوصيري-رحمه الله تعالى ورضي عنّا به-:

دعـــى إلى الله فالمستمـــسكون بـــه ... مستمـــسكون بحبـــلٍ غـــير مُنفَـــصِمِ

فـــاقَ النبيـــين في خَلْـــقٍ وفي خُلُـــقٍ ... ولم يُـــدانوه في علـــمٍ ولا كَـــرَمِ

وكلُّهـــم مـــن رســـول الله ملـــتمسٌ ... غرفًـــا مـــن البحـــر أو رشـــفًا مـــن الـــدِّيَمِ

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

وواقفـــون لديـــه عنـــدَ حَـــدِّهم مـن نقطـة العلـم أو مـن شـكلة الحكـمِ

ثم قال:

وكـــلُّ آيٍ أتـــى الرســـلُ الكـــرامُ بهـــا فـــإنما اتـــصلت مـــن نـــورِه بِهِـــمِ

فإنـــه شـــمسُ فـــضلٍ هـــم كواكبُهـــا يُظهـــرن أنوارهـــا للنـــاس في الظُّلَـــمِ

فالأدلاّء كثيرون، قال العارف:

وفي كـــل شـــيءٍ لـــه آيـــةٌ تـــدلُّ عـــلى أنـــه واحـــدُ

وهو أعظم الأدلاّء مرتبة ودلالة، وقد دلّ الدليل على أنه أدلّ دليل وأجلّ جليل وأجمل خليل، وأعظم الأتباع أتباعه لأنه أفخم المتبوعين، ولذا كان العلماء من أمته ورثة الأنبياء.

روى ابن عدي في «الكامل» عن علي ﷺ مرفوعًا: «**العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء ووَرَثَتِي ووَرَثَة الأنبياء**»[1] فالتابع يَشْرُف على قدر متبوعه؛ ألا ترى أن الكبراء إذا دخلوا منازل العظماء دخل معهم أتباعهم، فلا يقال إنهم أرقى ممن لم يدخلوا؛ لأنهم دخلوا تبعًا لا استقلالاً، فأولياء هذه الأمة لما اقتبسوا من مشكاته ﷺ كانوا كأنبياء بني إسرائيل علمًا لا رتبة، فوارثه ﷺ أوسع دائرة من وارث غيره؛ لأن المورث الأكبر، دائرته أكبر ولن يبلغ وليٌّ درجة نبيّ، ومن قال: إن الولاية أعظم من النبوة، فمراده ولاية النبي نفسه أعظم من نبوته؛ لأن الولاية لها وجه واحد إلى الحق، والنبوة لها وجهان: وجه للخلق ووجه للحق، وما كان مختصًا بالحق فهو بالرفعة أحق.

(**وَحِجَابُكَ الأَعْظَمُ**) الحجاب هو الستر، قال في «المصباح»: حجبه حجبًا من باب قتل: منعه، ومنه قيل للستر: حجاب؛ لأنه يمنع المشاهدة، وقيل للبوّاب: حاجب؛ لأنه يمنع من الدخول، والأصل في الحجاب جسم حائل بين جسدين، وقد استعمل في المعاني فقيل: حجاب بين الإنسان ومراده، وللمعصية حجاب بين العبد وربه، وجمع الحجاب حُجُب مثل كتاب وكتب، انتهى.

وهو في الاصطلاح: كل ما ستر مطلوبك عن عينك، وحجاب العزّة هو العمى

---

(١) رواه الرافعي في «التدوين» (٢/ ١٢٩).

والحيرة، والمراد به هنا المانع الحاجز عن انتهاك حرمات الجناب الإلهي بما جاء به من البيّنَات فأَمَر ونهى، ووعد وأوعد، وخفّف وشدّد، فكان الحجاب الأعظم بين التلقي من الحق، والإلقاء إلى الخلق، فلو زال هذا الحجاب لضلّت الخلق، ولم تهتد إلى الصواب؛ لأن ظهور الذات بدون براقع الأسماء والصفات لا يكون، قال العارف التلمساني:

حجبتهـــا الـــصفات والأســـماء أن تُـــرى دونَ برقـــعِ أســـماءُ

فالمظهر المحمدي الأكمل هو برقع جمالها الأشمل، فإن فيض مجلى الذات العلية لا ينال إلا بواسطة مظهر كامل، ولا أكمل منه لقبول فيوضها الخفية والجلية، وأنشد سيدي محيي الدين قدس الله سره:

ولم يَبْـد مـن شـمس الوجـود ونورِهـا عـلى عـالم الأرواح شيء سـوى القُـرصِ

وليـست تُنَـال الـذاتُ في غـير مظهـرٍ ولـو هَلَـكَ الإنـسانُ مـن شـدّة الحِـرْصِ

وقال ﷺ في «فتوحاته»: إن الله لا ينظر إلى العالم إلا ببصر عبده الكامل، فلا يذهب العالم للمناسبة، فلو نظر إلى العالم ببصره لاحترق، فينظر الحق ببصر عبده الكامل المخلوق على الصورة وهو عين الحجاب بين العالم وبين السّبحات. انتهى.

وقال في «عقلة المستوفز»: اعلم أن لله سبعين حجابًا من نور وظُلمة، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه؛ فلهذا نرى الحق من غير الوجه الذي يرانا، وإنما يقع الإحراق إذا وقعت الرؤية من وجه واحد، وهو وقوع البصر منك على البصر.

وقد أوجد الله في هذه الدار مثالاً لذلك، فخلق دابة تسمى «الصّل» إذا وقع بصر الإنسان عليها وبصرها عليه على خط واحد، فاجتمعت النظرتان مات الإنسان من ساعته انتهى.

فالحُجُب راجعة إلى العبد؛ لأن الحق تعالى لا يحجبه شيء؛ إذ لو كان محجوبًا لكان مقهورًا، وهو القاهر فوق عباده، والحجب خلقه فحجب الخلق بالخلق.

قال صاحب «الحكم» -قدس الله سره-: كيف يُتَصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟ كيف يُتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، ولولاه لما كان وجود كل شيء؟ انتهى.

وقال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في كتاب «الحجب»: قلنا: وإذا كان الحُب هو أعلى المقامات والأحوال وأصلها والساري فيها، وكل ما سواه فرع عنه، فالأولى أن تردّ إليه جميع المقامات والأحوال، ومما يؤيد أنه الأمر الجامع والأصل الكلي كونه مقام أصل الوجود وسنده، ومبدأ العالم وممدّه، وهو محمد ﷺ، فاتخذه الله حبيبًا حين اتخذ غيره نجيًّا، وقد قال ﷺ: «**أوتيت جوامع الكلم**»(١) فمن حقيقة هذا السيّد تفرّعت الحقائق علوًا وسفلاً.

وما على الله بمستنكَرٍ أن يَجمعَ العالَمَ في واحدِ

فأعطى الله ﷻ أصل المقامات -وهو المحبة- أصل الموجودات، وهو محمد ﷺ، وبالحبّ كان الوجود المحدث، وقد ورد في الكتب المنزلة: قال الله تعالى: «**كنت كنزًا لا أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق وتحبّبت إليهم بالنعم حتى عرفوني**»(٢) فقد جاء بأحببت وتحببت، فإذا تحقّقت أن المحبة هي الأصل، وأنها أعلى ما يوهب من الحلي، فلا يؤيسنّك علوّها عن طلبها، فقد قيل:

لا يؤيسنّك عن مجدٍ تباعدُهُ فإنّ للمجد تدريجًا وترتيبا

إنّ القناة التي شاهدت رفعتَها تنموا وتنبت أنبوبًا فأنبوبا

هذا.. وإن اختصت بها سيد المرسلين فما اختصّ إلا بالكمال فيها، ولكلّ موجود منها شرب، لكن تتفاوت المشارب، ومع أنها أعلى المقامات، فالوقوف حجاب عن المحبوب، فما ظنّك بما يتضرع منها؟ ولمّا كان الأمر على الترقّي والتداني إلى مقام التلقّي، والتلقّي لابدّ أن يكون الأعلى حجابًا على الأنزل إذا كنت متدليًا، ولابد أن يكون الأنزل حجابًا على الأعلى، إذا كنت متدانيًا لكن الصاعد محكوم عليه والمتدلّي حَاكم فالكل في الحجاب، ومقام لا حجاب، حجاب.

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٥٠)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣١٨).

(٢) تقدم.

ثم قال: فصل متمم: اعلم أيها المحب كائنًا من كان أن الحجب التي بينك وبين محبوبك كائنًا من كان ليس سوى وقوفك مع الأشياء، كما يقول: من لم يذق طعم الحقائق، وإنما وقف مع الأشياء لضعف الإدراك، وهو عدم النفوذ وهو المعبر عنه بالحجاب، وهو عدم، والعدم لا شيء فلا حجاب، ولو كانت الحجب صحيحة لكان من احتجب عنك احتجبت عنه، ولا يعرف ما نذكره إلا من كان الحق سمعه وبصره، وهو الذي يعرف ما نعبّر عنه بالحجاب.

واعلم أنك إذا تفرغت لأمر ما بالكلية، فالضرورة تقف معه، وذلك الوقوف هو حجابك الحاجب لك، فتخيل أن الوقوف معك حجبك، وليس كذلك، فالوقوف مع الخلق حجابك عن الحق، والوقوف مع الحق حجابك عن الخلق، وهذا من باب التوسع والإيناس لما ورد في الكتاب والسنة من ذكر الحجب النورانية والظلمانية، وعلى هذا التوسع ثبتت الحجب. انتهى.

واعلم أن كل مقام ثانٍ حجاب بالنسبة لما دونه، وهكذا الذوق، وكل صاحب مرتبة فهو حجاب على من دونه؛ لأن استمدادهم منه، فإن كل رجل من الرجال المعينين يستمدّ ممن هو أوسع دائرة منه، فيكون المستمدّ منه حجاب المستمِدّ وجميعهم يستمِدّون من القطب الغوث، فهو حجابهم، وهو يستمِدّ من روحانية أحد الأنبياء الأربعة المتقدم ذكرهم، وهم يستمِدّون من الحاجب الأعظم ﷺ، وهو ﷺ يستمِدّ من حضرة الإطلاق، ويمدّ سائر نوّابه في جميع العوالم الغيبيّة والعينية بحسب ما يطاق، فيمدّ كل أحد على قدره واستعداده، لا على قدر سعته واستمداده، فإنه البحر الخضم الزاخر الذي لا يُدرك له أول من آخر، ومن نظر بعين قلبه إلى بحر فيضه العلي، وبَر برِّه الجليّ، وشاهد تلقّي سائر الكائنات عنه، وأَخْذَها بالوسائط أو بدونها منه، اندهش قلبُه، وطاش لبُّه، وأينعت محبته، واتّسعت مودته، فإن القطب له ستة عشر عالمًا أحاطت الدنيا والآخرة عالم واحد منها، وهو يمدها جميعها ومن فيها ونبيّنا ﷺ هو الممدّ له بهذا الإمداد التام، ومسعفه باستطاعة حمل أعباء هذا المقام، يتلقى كل بلاء نزل، أو مدد تنزّل، ويغرقه على العوالم بحسب ما يطعه الخبير العالم، فيعطي كل ذي حق حقه، وينشر مطويّ تلك الشقّة، فهو من رحمة الله تعالى بالعباد الساري حكمها أبد الآباد، وإمامه الأعظم، ومقدامه الأفخم، هو الرحمة العامّة، والنعمة التامّة، فإن به ظَهَر النور من خلف سُجُف الظهور، وهو جفن عين سر الظهور الحبّي، الذي به اجتمع النور القربي، فلولا وجود سيد

البشر لتفرّق نور عين الظهور وانتشر، فالجفن الأعلى من حيث باطنه العالم العلوي، والجفن الأسفل من حيث ظاهره العالم السفلي، فإن العين الباصرة إذا انقطع جفنها تفرق نورها ولم تر شيئًا، إذ هو حجاب العين المانع من وصول الأذى إليها، وهكذا حكم من جاء رحمة للعالمين، فإنه الحجاب الأعظم الذي رحم الله به الجاهلين والعالمين، لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك، فبسببه وجدت الممالك والأملاك، وجاء النور فانمحت الأحلاك، والحجب وإن كثرت جدًا ولم يطق الحاصي لها عدًّا، فهو أعظمها حجابًا، وأرفعها جنابًا ومن جملة الحجب العظيمة والستارات الكريمة حجاب الظهور التام بالنور العامّ، قال العارف المقدام:

بالظّهورِ الصرفِ محتجبٌ ... أنت هذا صحّ في الخبرِ

أنت فيهم ظاهرٌ وبهم ... ولهم لولا بَقَا الأثرِ

لو تلاشت عنهمُ ظُلَمٌ ... وانمحوا عن عالمِ الصّورِ

شاهدوا معناك منبسطًا ... ساريًا في سائر الفِطَرِ

ودَرُوا أنّ الحجاب هُمُ ... عن شهودِ المنظرِ النّضِرِ

وقضى يعقوبُ حاجتَه ... وانتهى زيدٌ إلى الوطرِ

وقال الآخر:

وما احتجبت إلا برفع حجابِها ... ومن عجبٍ أن الظهور تستّرُ

وأنشد بعض العارفين:

لقد ظَهَرْتَ فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يعرف القمرا

ثم استَتَرْتَ عن الأبصار يا صمد ... وكيف يُعرف من بالعزّة استترا

قال ابن عطاء الله ﷺ في «لطائف المنن»: فما احتجب الحق عن العباد إلا بعظيم ظهوره، ولا منع الأبصار أن تشهده إلا قهاريّة نوره، فعظيم القرب الذي غيّب عنك شهود القرب.

قال سيدي أبو الحسن -قدّس الله سرّه-: حقيقة القرب أن تغيب في القرب لعظم القرب، كمن يشتَمُّ رائحة مسك، فلا يزال كلّما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذي هو فيه انقطعت رائحته عنه. انتهى.

وقال الشعراني ﷺ في «اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر»: فإن قلت إن الحق تعالى أخبر أنه أقرب إلينا من حبل الوريد، فإذا كان هذا القرب العظيم، فما المانع لنا من رؤيته؟ فالجواب: المانع من رؤيته شدة القرب كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٥] أي: لشدة قربي. انتهى.

وقال سيدي محيي الدين -قدّس الله سره- في كتاب «الحجب»: حجاب القرب القرب هو حجاب عن الذات؛ لأن فيه مشاهدة بقاء الرسم، ومن بقي رسمه فلا مشاهدة له، ومن لا مشاهدة له لا معرفة له بالذات، كما قيل:

وفي القـــرب تبعيـــدي عـــن إدراكِ ذاتِـــه ومَـــالي ســـوى الـــذات النـــزيهة مطلـــبُ

انتهى.

ومنها: الوصال، فهو حجاب عن مقام الانفصال الذي هو أعلى منه، وحجاب عن الحق، فإن من شهد أنه واصل فهو في الفائت لا الحاصل، فإن الوصال يقضي بفناء العبد وبقاء الحق، والانفصال عبارة عن بقاء العبد بعد الفناء بإبقاء الرب، ومقام البقاء أعلى، فالوصال يحجب المواصل فلا يرى وصلاً ولا يشهد فصلاً؛ ألا ترى الغريق في الماء كيف لشدة اتصاله بعينه إذا فتحها لا يرى الماء!

ومنها: الشُّهُود للواحد المشهود، فإنه يغني المشاهد بما يشاهد في تلك المشاهد، والحادث إذا تجلّى عليه الحق، أفناه ولوجوده مَحَق، وفي الحديث: «**ما تجلّى الله لشيء إلا خضع**»[1] قال القشيري ﷺ: أي فني.

ومنها: الغيبة والحُضور، والتملي بعد رفع الستور، وكشف الحجاب، ووقوف المحبّ بالباب ورؤية الأحباب، إلى غير ذلك من الحجب الرافعة للقربة الشافعة، فهي من جملة الأبواب، وهي الستر والحجاب، وأعظم الحجب المُدْنية من ربِّ الأرباب سيد السادات والأقطاب، فهو ﷺ حجاب أبدًا لا يرتفع، ونقاب على الوجه الجميل لا يصل بدونه الطالب ولا يرتفع، فما ظهر ما ظهر للعالمين إلا من خلف حجابه، ولا شرب من شرب إلا بكاساته وأكوابه.

(١) لم أقف عليه.

قال البكري -قدس الله سره- في «صلواته النبوية»: مَنْ لا تُجْلى أشعة الله لقلب إلا من مرآة سرّه وهو النور المطلق، ولا تُتْلى مزاميره على لسان إلا برنّات ذكره وهو الوتر الشفعي المحقق. انتهى.

وهو الباب الذي لا يُدخل إلا منه، واللباب الذي لا باب إلا عنه.

وقال البكري ﷺ:

وأنـــت بـــابُ اللهِ أيُّ امـــرئٍ أتـــاه مـــن غـــيرِك لا يَـــدخُلُ

ولا يعرف كشفًا سرّ كونه الحجاب الأعظم الأحمى، وأنه باب الأبواب والواسطة العظمى إلا من عرّفه الحق بذلك، وأنْشَقَهُ عرف ما هنالك، وإذا كانت الأولياء أرباب الرسوخ في المقام تجهل مراتب بعضها ووساطة مَنْ هو أرفع مرتبة في المقام، كما وقع لسيدي عبد الرحمن الطفسُونجي وسيدي عبد القادر الجيلاني الهمام، وقول الطفسُونجي: «لم أسمع بذكر الشيخ عبد القادر إلا في الأرض، وإن لي أربعين سنة في دركات باب القدرة فما رأيته ثَمَّ».

وقول سيدي عبد القادر ﷺ: «قولوا له: أنت في الدركات، ومن هو في الدركات لا يرى من هو في الحضرة، ومن هو في الحضرة لا يرى من هو في المخدع، وأنا أدخل وأخرج من باب السرّ من حيث لا تراني، بأمارة خرجت لك الخلعة الفلانية في الوقت الفلاني خلعة الرضا على يدي، وبأمارة خروج التشريف الفلاني في الليلة الفلانية تشريف الفتح على يدي، وبإمارة أن خلع عليك في الدركات بمحضر اثني عشر ألف ولي خلعة الولاية وكانت فرجية خضراء طرازها الإخلاص على يدي»، فلما بلغته الرسالة قال: صدق الشيخ عبد القادر سلطان الوقت وصاحب التعريف. انتهى من «البهجة» مختصرًا.

فكيف لا تُجهَل وساطة مَن هو في سرادقات غيب الغيب الذي لا يُدرَك سرّه، ولا يُلتَقَط لتموّج بحره [الزاخر] دُرُّه.

ولا يقال: كيف تَجهل الأولياء مراتب بعضهم وهم أهل الكشف العلي والرشف الجلي، فإن ما من كشف عالٍ إلا وفوقه أعلى، ولا رشف جلي إلا وفوقه ما هو أحلى، والأعلى حجاب على الأدنى.

قال الشعراني ﷺ في «الجواهر والدرر»: وسمعته ﷺ يقول: الخلق على طبقات عامة: فقهاء، ومتصوفة، وصوفية، وعارفون، وكاملون، ومكملون، وأقطاب، فكل من كان في مرتبة من هذه المراتب أنكر ما وراءها ضرورة لعدم ذوقه له، فالفقيه ينكر على المتصوف، والمتصوف على الصوفية، والصوفية تنكر على العارفين، وهكذا، والقطب لا ينكر على أحد لمروره على المراتب كلها، ومُرادُنا بالإنكار من حيث الفهم لا الإنكار من حيث الأحكام الشرعية التي صرحت بها الشريعة. انتهى.

فكان صاحب المقام الأعلى حجابًا على الأدنى، وهم أيضًا لا يعلمون إلا ما علمهم الخبير العليم، ولا يستكشف الكامل لسلوكه صراط الأدب المستقيم.

ثم قال المؤلف -قدس الله سره-: (**القائم لك بين يديك**) قيامًا كليًا لا يعادله قيام، لاتّصَافه بالعبودية المحضة على الكمال والتمام، فلا يقوم بين يدي سيده أحد كقيامه، ولا تُضرب في ذلك المقام على بساط الدنوّ الأعلى خيام غير خيامه، فكل أهل الحضرة بالنسبة إليه جلوس وهو القائم بكمال التلقي من حضرة القدوس، وهو سماء التجلي، وارض التدلّي، وجبال التمكين، وأودية السرّ المتين، والسحاب الماطر بماء التقريب، النازل على أراضي القلوب بكل سرّ عجيب، والقائمون كثيرون، وكلهم في ظلّ هذا القائم يسيرون؛ لأنه المُشَار إليه في الحضرة العليَّة الزلفى، والمعوّل عليه في كل ما يَظْهر ويَخْفى، فما أوسع جاهه العريض! وما أعجز الخلق عن وصفه الإجمالي في النثر والقريض! وما أسعد من التجأ إليه، وجعل تعويله بعد الحق عليه! فإنه المرآة المجلوّة الكمالية، التي ما شذّ عنها شيء من الصفات الجلالية والجمالية، وهو القائم غدًا خطيبًا، بين يدي ربه للشفاعة فيقال: منبر القرب ضمَّ خطيبًا، فيلبس خلعة الإكرام في ذلك المقام، ومن طيبه تَضَمَّخَ طيبًا.

وقوله (**لك بين يديك**) أي: لا لغيرك بين يدي قدرتك وسلطانك، في حضرة تقريبك وامتنانك، فإن المراد باليد القوة والقدرة، قال تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ** ﴾ [الذاريات:٤٧] وهذا من الفن المسمى بالتورية والإيهام بأن يذكر لفظًا له معنيان بالاشتراك أو التواطؤ، أو الحقيقة والمجاز أحدهما بعيد ينقصد ويورى عنه بالقريب، ليتوهمه السامع من أول وهلة، وتسمى في هذه الآية مرشحة، فإنه يحتمل الجارحة وهو المورى به، ورشحه بذكر البناء، ويحتمل القوة والقدرة وهو البعيد المقصود كذا ذكره ابن حجر في «شرح الهمزية» ملخصًا،

فلك الحمد يا ربنا على ما أنعمت به علينا من النعم العامة والخاصة الجسيمة، وعلى ما تفضّلت به من النعم العظيمة، حيث جعلتنا من أمة سيد الأنام ومصباح الظلام ﷺ ما سَحَّ الغمام أو نَاحَ الحَمام.

ولنذكر عبارة الشارح المقدام، فإنها روضٌ زاهٍ زاهر، وحوضٌ باهٍ باهر، قال - رحمه الله تعالى-: قوله (**اللَّهُمَّ إِنَّهُ سِرُّكَ الجَامِعُ الدَالُّ عَلَيْكَ وَحِجَابُكَ الأَعْظَمُ القَائِمُ لَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ**) هذا اللفظ ظاهره الإخبار، ومعناه الإقرار بالمخبر به على جملة تعظيم المخبر عنه، وهو سيدنا محمد ﷺ وهو المقصود بالضمير المتصل بإن، وضمّن الشيخ في كلامه هذا حُصُول ثلاث مقامات لنبينا ﷺ:

الأول: كونه ﷺ سرّ الله الجامع.

الثاني: كونه دالاً عليه.

الثالث: كونه حجابه القائم له بين يديه، فهذه مقامات ثلاثة أقامه الحق فيها، واختاره لها وأهّله إليها وأمدّه فيها بالمعونة والتأييد والتيسير والتسديد، وهذه المقامات وإن شاركه فيها غيره من المرسلين ﷺ فلم يبلغ أحد فيها منهم مبلغه ﷺ ولا ترقّى أحد إلى مقامه.

فأما كونه ﷺ سرّ الله الجامع لأنه ﷺ جمع جميع أسرار الصفات وأسرار أسماء الأفعال، فهو مَظهرها ومُظهرها، وهو سرّ الله الجامع، تعالى الذي أودعه مكنوناته العلوية والسفلية، فهو السرّ الذي به ظهرت الأسرار، وهو النور الذي أشرقت به الأنوار، فلا مكون إلا وهو سِرّه الذي قام به أمره، فلولا السر المحمدي الذي أودعه الله المكونات الملكية، والسر الأحمدي الذي أودعه الله المكونات الملكوتية ما قامت بها أسماء الصفات وأسماء الأفعال، ولمّا كانت أثرًا يقوم بها الاستدلال، وأمّا كونه دالاً على الله تعالى، إذ هو الدليل الأعظم- بعثَهُ الله دليلاً يدل عليه ويعرّف الطريق إليه، بعث في زمان فترة عمّت فيه الضلالة، وكثُرت فيه الجهالة، الخلق فيه عن الله معرضون، وعن بابه حائدون شاردون، فدلّهم على الله تعالى وعرّفهم الطريق إليه، وردّهم إلى بابه الكريم، ونَهَج بهم الصراط المستقيم، فكانت رسالته عامة، ودلالته تامة، فدلّ على الله بأقواله وأفعاله وأيقظ الأنام إلى ملاحظة جلاله وجماله، فكل داعٍ إلى الله تعالى إنما يدعو بدعوته، وكل دليل فإنما يدل بدلالته، فكانت دعوته إلى الله تعالى وولايته عليه بسياسة محمدية، وتعريفه إياه تعالى بحكمة أحمدية، فلم يخرق حجاب

العظمة والوقار، وإنما رفع عن بصائر العارفين حُجُب الأغيار، وظُلَم سحائب الآثار، وأما كونه ﷺ حجابه القائم له تعالى بين يديه؛ لأنه ﷺ حجب العقول أن تجول في حقائق الذات، والتفكر في تعقل العقل عن النظر إلى ما ليس له إليه سبيل، بهذا أُرسِل ﷺ وبه أمر، فكان حجاب الله الأعم القائم له بين يديه، فأظهر الفرق وأبطن الجمع، فكلما طلبت الأرواح الجمع المطلق في دار القرار زجرها زاجر الشرع وعقلها عقل العلم فرجعت القهقري ونكصت إلى وراء، فلم يكن لها إليه سبيل، ولا أُبيح لها في قليل من ذلك ولا أقلّ من قليل فافهم.

قوله ﷺ: (**حجابك الأعظم القائم لك بين يديك**) أشار إلى أنه ﷺ حجابه لا وَعْيُه. انتهى. ولقد جرى على اللسان أبيات تناسب أن تذكر في هذا المقام، وأن تجعل عليه كالسحابة على وجه الشمس البسّام، وهي:

هبّت نُسَيمات الوصال فهاتِ ... كأسًا به سُكْري من الميقاتِ

وأَدِرْه صرفًا ثم شنف مسمعي ... في ذكر من أهوى تَطِبْ[1] أوقاتي

واكشف لنا عن وجه سلمى إننا ... بمشهودها في جنّة الجنّات

وابسط بساط البسط لي في حَانِها ... عند انقباض الغير في الحانات

ولقد طرِبتُ إذا الحبيب مُواجهي ... بسنا التداني من جميع جهاتي

كشف الحجاب فلا حجاب ولا غطا ... في سائر الخلوات والجلوات

لا غير يشهدُ إذ سواه هالك ... في ما مضى والحالِ ثم الآتي

يا ساقي الندمان كأسًا مُترعًا ... عُدَّت به الأحياء في الأموات

يُدني الذي شطَّت ديار دُنُوِّه ... ويغيب منه الصَّبُّ بالسكرات

روّق دنانك واسقه أهل الوفا ... ليُخَلَّصوا من آفة الآفات

---

(١) في الأصل (تطيب).

قـــومٌ لقـــد خرقـــوا حجـــاب نفوســـهم ... مُـــذْ أُشْـــهِدُوا لعجائـــب الآيـــات
ورأوك عـــين حجـــابهم لكـــنّهم ... بـــك شـــاهدوا المحبـــوب في الأنـــات
وأريـــتهم مـــن خلـــف ســـتْرِ مـــا رأَوا ... فيـــك اســـتطاعوا حمـــل ذي الحـــالات
لـــو أنهـــم كـــشفوا بـــدونك أُعْـــدِموا ... حـــالاً بـــلا مهـــل ودون فـــوات
لـــولاك مـــا طـــاقوا ظهـــورَ صـــفاتِه ... كيـــف الثبـــات لـــدى الـــتجلّي الـــذاتي
أنـــت الحجـــابُ وأنـــت بـــاب دنُـــوِّهم ... في ســـائر الأوقـــات والـــساعات
مـــن ذا يطيـــقُ ظهـــورَ نـــور جمالـــك ... الـــسَّاميِّ أو لمحًـــا مـــن اللمحـــات
فـــأبو يزيـــدٍ مـــات تلميـــذٌ لـــه ... لمّـــا رآه كيـــف غيـــب الـــذات
وهـــو الـــذي لمّـــا تطلّـــب أن يـــرى ... مـــن نـــور ذلـــك ســـيد الـــسادات
نـــزرًا يـــسيرًا مـــا اســـتطاع للمعـــة ... منـــهُ وكـــادَ يـــذوب باللمعـــات
ثـــم ابتغـــى ســـترًا فأســـدل دونـــه ... لـــولا الحجـــاب لـــذاب بـــالنظرات
فلـذا سُـمِيتُم بالحجـاب الأعظـم الأحمـى ... لأن بكـــم حيـــاة حيـــاتي
ثـــم الـــصلاة عليـــك يـــا خـــير الـــورَى ... مـــا لاح بـــارق حـــضرة الحـــضرات
وكـــذا الـــسلام مـــدى الـــدُّنا يُهـــدي لكـــم ... مـــا دَام ذكـــر النفـــي والإثبـــات
والآلِ والأصـــحاب ثَـــمَّ وتـــابعٍ ... مـــا اهتـــزّت الأحبـــاب في الـــصلوات
أو قـــال يومًـــا مغـــرمٌ بوصـــالكم ... هبّـــت نُـــسَيْماتُ الوصـــال فهـــاتِ

ثم قال المؤلف -رحمه الله تعالى- : (اللَّهُمَّ أَلْحِقْنِي بِنَسَبِهِ وَحَقِّقْنِي بِحَسَبِهِ).

(اللَّهُمَّ أَلْحِقْنِي بِنَسَبِهِ) أي: أوصل نسبي بنسبه الظاهر، أو يكون أراد به الباطن على ما سيأتي، والنسب، كما قال في «المختار»: واحد الأنساب، والنِّسبة بكسر النون وضمها مثله، ورجل نسّابة أي: عالم بالأنساب والهاء للمبالغة في المدح، وفلان يناسب فلانًا فهو نسيبه أي: قريبه، وبينهما مناسبة أي مشاكلة، ونَسَبْتُ الرجل ذكرت نَسَبَهُ -وبابه نَصَرَ- ونِسْبَتَهُ أيضًا

بالكسر. انتهى.

واعلم أن النسب على قسمين: جسماني وروحاني، والأول هو النازل والثاني هو العالي الدالي، وهو الذي قرب سلمان الفارسي وصهيبًا الرومي وبلالاً الحبشي وأبعد أبا لهب وأبا طالب ولم ينفعهما النسب الجسماني، وإلى هذا أشار العارف الرباني سيدي عمر بن الفارض ﷺ ما سمع عارض، بقوله:

نَسَبٌ أقْرَبُ في شَرْعِ الهَوَى ... بينَنَا من نَسَبٍ من أَبَوي

فإن نسب الروح أدنى وهو بيت الفُتُوح؛ إذ هي ألصق من الجسم بِنَا، وعليها استقام أمر هذا البِنَاء، وقد قلنا في الألفية:

واعلمْ فإن النسبَ الرّوحاني ... أقرب عندهمُ من الجسماني

إذ روحُنا ألصق من جسمٍ بنا ... وهي التي قام عليها ذا البِنَا

ووالد الروح مقدّم على ... والد جسمٍ إذ مقامُهُ عَلاَ

لأنه يُصلح منا القلبا ... فلا نرى بعد بنات قلبا

ساعٍ على عمارة البواطن ... ومؤدي الحقوق للمواطن

ووالد الجسم يربي الجسما ... فلم يكن يمح اسمنا ورسما

واجمعوا إذ الذي لا يقتدي ... في السر والجهر به لا يهتدى

وكل من لم يسلكن بالجِدِّ ... ولم يدع كان أبي وجدي

فلا يجيء منه بذا الطريق ... شيء ولا يرى سنا البريق

فقول المؤلف ﷺ: (اللهم ألحقني بنسبه) أي: النسب الباطني الذي هو نسب الحب والاتباع، وهو الذي به الانتفاع والارتفاع، ونسب التقوى الذي به السالك يقوى، وفي الحديث: «يقول الله ﷻ يوم القيامة: اليوم أضع نَسَبكم وأرفع نسبي، أين المتقون؟»[1].

وعنه ﷺ: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أبيض

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٢٧٨).

إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب»[1].

وعنه ﷺ: «**إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء**»[2]. وأيضًا: «**الناس رجلان: مؤمن تقي، وفاجر شقي**»[3].

قال في «المختار»: العيب والعيبة أيضًا والعاب بمعنى، انتهى.

أو يكون أراد بقوله: (ألحقني بنسبه) لأكون محبوبًا لديه محبة الكل لجزئه والأصل لفرعه، فيستكمل ظاهري بانتسابي لظاهريته، ويتكمل باطني بتحققي بحسبه المشير لباطنيته، فإن نسبه أشرف الأنساب، وحَسَبه أشرف الأحساب، فمن جمع الله له بين نسب جسمانيته وحسب روحانيته فهو الكامل النّبيه، الذي لم يفتخر بمجرد الانتساب لأبيه، فإن شرف الأنساب –وإن كان نعمة– فالوقوف معه والاغترار به نقمة.

وقلت في هذا المعنى، سابقًا لمن تمعن وكان مُعنَى:

إذا انتسبَ الأشرافُ نحوَ جدودِهم ... وقد قَنعُوا في ذلك النسبَ الأدنى

فخذْ نسبَ التقوى لتقوى بأخذِه ... على نيلِ ما ترجوهُ في المنزل الأسنى

ولا تغترر فيما الجدودُ أتتْ به ... ولكن لهم كن تابعًا تدرك الأمنا

فمن ينتسب نحو الجد وذوي الولا ... ويذكر ما نالوهُ في الحضرة الحَسْنَا

ويرضى بأفعال تُخَالفُ فَعالَهم ... وحَالُهُمُ هذا هو الجاهل المُضْنَى

فخلّ الدعاوى بالجدود وغيرهم ... من العلم والتقوى وما شاكل المعنى

وجَدَّ كما جَدُّوا بصدقٍ وهمةٍ ... لعلَّ إلى أحوالهم ساعةً تُدْنى

فليسَ الفتى من يدّعي ذا بنفسِه ... ولكن مَّن يدّعى له الحبَّ قد أفنا

فسلمان منّا وهو من فارسٍ وقد ... تَفُوق على الآباء بتوفيقها الابنا

ولم ينتفع فِيهِ أبو لهبٍ كما ... قد انتفعَ الأصحابُ لّما المنى أدنى

---

(١) رواه ابو داود (٤/ ٣٣١)، والترمذي (٥/ ٧٣٥).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٣٣١)، والترمذي (٥/ ٧٣٥).

(٣) رواه أبو داود (٤/ ٣٣١)، والترمذي (٥/ ٣٨٩).

نعـــم إنّ للإنـــسان فـــضلَ مزيّـــة ولكـــنّ مـــن يغـــترّ فيهـــا ينـــلْ حزنـــا
وإني لأرجـــو بانتـــسابي لـــسيدي أبي بكـــرٍ الـــصديق ســـاقينا الـــدّنا
شـــفاعتَهُ لي إننـــي أنـــا مـــذنبٌ كثـــيرُ الخطايـــا نادمًـــا قارعًـــا ســـنا
وإن كنـــت قـــد عقّيـــت في كـــل حالـــة فلـــم يَـــر مـــن يـــدعوني حيـــاءً لـــه ابنـــا
عـــساه بـــأن يـــرضى انتـــسابي لجاهـــه وإن بـــه يـــرضى إلـــهُ الـــورى عنّـــا
وصـــلّ عـــلى مُجـــلي المـــصدا علـــم الهـــدى وســـلّم عليـــه مـــا المتـــيّم قـــد أثنـــى
وآلٍ وأصـــحابٍ كـــرامٍ وعِـــتْرةٍ مدى الدهر ما دارت كئوس الرضا مثنى

ثم قال ﷺ: «وحققني بحسبه» وقوله «حققني» أي: اجعلني متقنًا متصفًا بحسبه، والحَسَب: قال في «المختار»: والحسب أيضًا ما يعدّه الإنسان من مفاخر آبائه، وقيل: حَسَبُه دينه، وقيل مالُه، والرجل حسيب. قال ابن السكيت: الحسب والكرم يكونان بدون الآباء، والشرف والمجد لا يكونان إلا بالآباء.

وقال في «المصباح»: وقال الأزهري: الحَسَب: الشرف الثابت له ولآبائه.

وقوله ﷺ: «**تنكح المرأة على حَسَبها**»[1] أحوِجَ أهل العلم إلى معرفة الحسب؛ لأنه مما يعتبر في مهر المثل، فالحسب عدّ الفعال له ولآبائه مأخوذ من الحساب، وهو عدّ المناقب؛ لأنهم كانوا إذا تفاخروا حسب كل واحد مناقبه ومناقب آبائه، ومما يشهد لقول ابن السكيت قول الشاعر:

ومـــن كـــان ذا نـــسَب كـــريم ولم يكـــن لـــه حـــسَبٌ كـــان اللئـــيمَ المـــذمّما

فجعل الحسب فعال الشخص مثل الشجاعة وحسن الخلق والجود، ومنه قولهم: «حَسَبُ المرءِ دينُه». وقولهم: «يُجزى المرء على حسب عمله» أي: على مقداره، انتهى.

فالافتخار بالأعظُم الرّمم يقال لصاحبه: عظامي أو بشرائف الأخلاق فيقال لصاحبه: عصامي، ومن جمع بينهما فهو الجامع الذاهب في أسنى المذاهب.

(١) رزى البخاري (٥/ ١٩٨٥)، ومسلم (٢/ ١٠٢٩) بنحوه.

وقد قلنا في مطلع قصيدة معشرة:

مـــا افتخـــارُ الفتـــى ببـــالي العظـــام يـــا عـــصامي بـــل في الـــصفات العظـــام

ومعنى قوله: (**حقِّقْني بحسبه**) أي: اجعلني متحقّقًا بصفاته الحميدة لأتخلق بتلك المآثر الشريفة المجيدة، فأحتظي بالقرب من جنابه، وأستقي من خالص شرابه، ولأكون وارث حاله المحمّدي، وحارث مجاله الأحمدي، فأفوز بِنَيْل ذلك، وأجوز أشرف المسالك.

قال الشارح -رحمه الله تعالى- قوله: (**اللهم ألحقني بنسبه، وحققني بحسبه**) اللحوق بالنسب: هو الاتصال الجسماني، والتحقق بالحسب هو الاتصاف الحالي، وذلك يقتضي شرف الملحق بشرف الملحق به، وكمال المحقَّق بكمال المحقّق، وهذا الطلب يقتضي القرب حسًّا ومعنى، فطلب الشيخ ذلك ليكون قريبًا منه ﷺ حسًّا ومعنى قرب اتصال دون انفصال، ومن صحّ له ذلك فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، انتهى.

ثم قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: (**وَعَرِّفَنِي إِيَّاهُ مَعْرِفَةً أَسْلَمُ بِهَا مِنْ مَوَارِدِ الجَهْلِ**).

(**وَعَرِّفَنِي إِيَّاهُ**): المعرفة: إدراك الشَّيء على ما هو عليه ولو من بعض وجوهه، و(**إيا**) ضمير منصوب منفصل، و(**الهاء**) كالياء والكاف حروف تزاد لبيان الغيبة والتكلم والخطاب لا محل لها من الإعراب، (**معرفةً**) منصوب على أنه مفعول مطلق مِنْ عرِّفني، (**أسلم**) أي: أنجو، وهو فعل مضارع -والفاعل الضمير المستتر- مجزوم إن قصد به الجزاء، أو مرفوع إن جعلته صفة لمعرفة، أي: معرفةً مسلّمةً، (**بها**) أي: بسببها (**من موارد**) جمع مورد، قال في «المصباح»: والمورد -مثل مسجد- موضع الورود، ووَرَدَ زيدٌ الماء فهو وارِد، وجماعة واردة ووَارِدٌ ووِرْدٌ تسمية بالمصدر، وورد زيدٌ علينا ورودًا حضر، ومنه ورد الكتاب على الاستعارة. انتهى.

(**الجهل**) قال في «المختار»: الجهل ضد العلم، وقد جَهِل من باب فَهِم وسَلِم، وتجاهل: أرى من نفسه ذلك وليس به، واستجهله: عدّه جاهلاً واستخفّه أيضًا، والتجهيل: النسبة إلى الجهل، والمَجْهلة -بوزن المرتبة- الأمر الذي يحمل على الجهل، ومنه قولهم: الولد مَجْهلة، والمَجْهلة: المفازة لا أعلام فيها انتهى.

والمعنى: اجعلني عارفًا به ﷺ معرفة أنجو بها من وِرْد موارد الجهل بجنابه الرفيع العالي، إذ الجهل داءٌ ودواؤه المعرفة بالتعرف من أهل المعالي، قال تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٤٣]، وإذا عرّفك الحق بشرف مقامه الأمجد، وتفرّده في كل مقام أوحد، لزِمْتَ طريق الأدب معه في كل حال، وسلكْتَ منهاجه القويم في الإقامة

والترحال، واتّبعْتَ أثر قدمه الشريف، وتمسكْتَ بالعروة الوثقى من حبه المنيف، فأفضى بك الحب إلى منازل القرب، وأشرفت بصدق الاتّباع على رفعة مقام الأتباع، وهناك ترى بعد هذا العروج؛ أن اسمك قد خُطّ في تلك البروج، وتدرك بالكشف اليقيني البدء والنهاية، فيزول عنك الجهل والشك وهذه هي العلامة والآية، وترفع عن عين قلبك غواشي الأستار، وتتحلّى بصفة الكتم؛ لتخلّقك باسمه الستّار، ويجب عليك في هذا المقام ألاّ تأمن من المكر الإلهي، ولا تزهو بعلمك ولا تفتخر ولا تُباهي، فإن في غيب الذات الذي لا يدرك ما يوجب الخوف والخشية، ولو كشف ما كشف وأدرك ما أدرك، فإن المُدْرَك عند أهل الكشوفات العليّة هو ما تعيّن في المرتبة العلمية، وأمّا ما بطن في غيب الذات الأقدسية، فلا يعثر عليه ولا يصل إليه أحد ولو بلغ أقصى المراتب السنية، ومن هنا قال السيد الأكمل ﷺ: «**لا أحصي ثناءً عليك**»[1].

قال القونوي ﷺ في «شرح الفاتحة»: أي لا أبلغ كل ما فيك، فاعترف بالعجز عن الاطّلاع على كل أمره، وقال ﷻ منبّهًا على ذلك: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ**﴾ [العمران:٢٨]، ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء:٨٥]، والقليل هذا شأنه فما ظنك بما ليس يُعلم عند العقلاء كلهم؟ ولهذا نُهي الناس عن الخوض في ذات الله، وحُرِّضوا على حسن الظن به وسيّما في أواخر الأنفاس، ولمّا صحّ أن أقرب الأشياء نسبةً إلى حقيقة الشيء روحُه، وكان عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام رُوحَ الله ومن المقرّبين أيضًا بإخبار الله وإخبار أكبر رسله عنه، ومع ذلك قال: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ**﴾ [المائدة:١١٦].

عَلِمْنَا بهذا وسواه، من الدلائل التي لا تُحصَى كثرةً ما أومأنا إليه وسكَتنَا عنه لوضوح الأمر وكونه بيّنًا بنفسه إن الاطّلاع على ما في نفس الحق معتذر.

فالحاصل عندنا من المعرفة المستفادة من إخباره ﷻ لنا عن نفسه هو بتقليدٍ منّا له، وكذا ما نشهده وندركه بقوة من قُوانا الظاهرة والباطنة أو بالمجموع، إنما نحن مقلّدون في ذلك لقوانا ومشاعرنا، وقصارى الأمر -أي: غايته وآخره- أن يكون الحق سمعَنا وبصرنا

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

وعقلنا، فإن ذلك لا يقضي بحصول المقصود؛ لأن كينونته معنا وقيامه بنا بدلاً عن أوصافنا إنما ذلك بحسَبنا لا بحسَبه كما بيّنا، ولو لم يكن الأمر كذلك لزم أن يكون كينونة الحق سمْعَ عبده وبَصَره وعقلَه باطنًا وظاهرًا على ما هو الحق عليه في نفسه، فيرى العبد إذًا كل مُبْصَر ويسمع كل مسموع سمعه الحق وأبصره، ولزم أيضًا أن يعقل كل ما عقلهُ الحق، وعلى نحو ما عقله، ومن جملة ذلك بل الأجلّ من ذلك عقلُه ﷻ- ذاته على ما هي عليه، ورؤيته لها كذلك، وسماعه كلامها وكلام سواها أيضًا كذلك، وهذا غير واقع لمن صحّ له ما ذكرنا ولمن تحقّق بأعلى المراتب وأشرف الدّرجات، فما الظنّ بمن دونه؟ فإذًا لكلٍّ من الحيرة في الله وفيما شاء نصيب.

وتذكّرْ قوله ﷺ: «**خمس من الغيب لا يعلمهنّ إلا الله**»(١).

وقوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللهُ**﴾ [النمل:٦٥].

وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ**﴾ [الأعراف:١٨٨]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ**﴾ [الأنعام:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ**﴾ [الأحقاف:٩]، وغير ذلك مما يطول ذكره، والله يقول الحق ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، انتهى.

ومن عَرَف ما تقرّر فهم منشأ خوف أهل الكمال، وفرط خشية أهل الجلال والجمال، الذين كُوشفوا بحقائق الأمور بعد رفع الستور، إذ لا يدرِك الحق على ما هو عليه وما استحقّ إلا الحق، ومن أدرك أن ثَمَّ ما لا يُدْرَك فقد أدرك، ومن هنا قال جدّنا الأعلى الصدّيق الأكبر الأغلى -قدس الله سره الأنْور الأجلى-: «**العجز عن دَرْكِ الإدراك إدراك**»، وقد ضمّنتُ مقالة هذا الهمام، تبعًا لسيدي محيي الدين الإمام، والجيلي المقدام، فقلت سابقًا:

العجـــزُ عـــن دَرْك الإدراك إدراكُ ... فـــما لمـــن رام غـــير العجـــز إدراكُ

العبـــدُ يعجـــزُ عـــن إدراك جملتـــه ... فكيـــف يـــدركُ مـــن للكـــل مـــلاّكُ؟

مَـــن ذاتُـــه قـــد تعالـــت أن يُحـــاط بهـــا ... والعقـــلُ حـــارَ وأمـــلاكٌ وأفـــلاكُ

(١) رواه البخاري (١/ ٢٧)، ومسلم (٢/ ٨٥٧).

وكيف يُدْرِك من بالحدث متّصفٌ ... من قد تقدّسَ أن يدركَهُ درّاك

فدعْ وساوسَ أوهام الصدور وقل ... العجز عن درك الإدراك إدراك

وإذا كانت حقيقة النبي ﷺ لا تُدْرَك ولا تُعرف حق المعرفة فكيف بحقيقة الحق؟ فما عرف أحد الحق إلا على قدر ما تعرّف له من المعرفة به، فعرف الحق بالحق على قدر العارف لا المعروف، وإلى هذه الإشارة بقوله: «**فتعرّفتُ إليهم، فبي عرفوني**»[1].

فقوله ﷺ: (**معرفةٌ أسلمُ بها من موارد الجهل**) أي: ولو من بعض وجوهه المحمدية الذي من عثر على وجه منها سلم من المهالك وسلك المسالك الفردية، فإن الإحاطة بكل وجوهه على الكمال متعذرة صعبة الارتقاء عسيرة المنال، بل هي لا محالة عين المحال عند من عرفْ سعة ذلك المحال.

ثم قال -رحمه الله تعالى-: (**وَأَكْرَعُ بِهَا مِنْ مَوَارِدِ الفَضْلِ**) فقوله: (**وأكرع**) معطوف على (**أسلم**) قال في «المختار»: كرع الماء: تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء، وبابه خَضَعَ، وفيه لغة أخرى من باب فهِمَ، انتهى.

(**بها**) أي: بتلك المعرفة (**من موارد الفضل**) الإلهي الذي لا يوصف بالتناهي.

قال في «المصباح»: الفضيلة والفضل الخير خلاف النقيصة والنقص انتهى.

قال الله تعالى: ﴿**وَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ [النساء:٣٢]، وفي الحديث: «**سلوا الله من فضله، فإنه يُحِبُّ أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج**»[2].

وقد شبّه الجهل والفضل بأنهار وعيون يُستقى منها تشبيهًا مضمرًا في النفس ثم استعار ذكر الموارد فتكون الاستعارة مكنية وذكر «الكرع» هنا ترشيح، وانظر ما أحسن قوله: «أسلم بها من موارد الجهل»، وهي تصدق بكل وصف ذميم، فإن الاتصاف به جهل بالنسبة للخُلُق الكريم، وقوله: (**وأكرع**.. إلخ) فإنها تَعُمُّ كلَّ خُلُق كريم، فكأنه طلب التخلي الكامل والتحلي الشامل بواسطة معرفة السيّد المعظّم ﷺ، ولا يَسْلم العبد كمال السلامة، ويكرع من الشراب الذي ليس فيه قلامة إلا إذا صار يأخذ عنه، وبالمشافهة يتلقى منه.

حكى الشعراني ﷺ أن سيدي إبراهيم المتبولي ﷺ كان كثيرًا ما يقول لوالدته: رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فقالت له: الشأن أن تأخذ عنه يقظة مشافهة، فوقع له ذلك، فأخبرها به، فقالت: الآن ابتدأت في مقام الرجولية. أو ما معناه.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٧٣).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٥٣٥).

وبهذا الأخذ الذي ليس فيه التباس يقتبس السالك من مشكاته ﷺ كمال الاقتباس. ومن هنا قال سيدي أبو العباس، وراث الشاذلي زكي الأنفاس ﷺ: «لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عَدَدْتُ نفسي من المسلمين» أي: الكاملين في رتبة الإسلام، فإن الأخذ عنه من هذا الطريق دخولٌ لحضرة السلام من باب السلام حتى يصل دار السلام بسلام، وبهذه المعرفة تثبت الأقدام، ويصحّ الإقبال والإقدام.

ولنذكر عبارة الشارح المقدام ونجعلها الختام قال-رحمه الله تعالى-: «وعرِّفْني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل» المعرفة الحقيقة لله ولرسوله ﷺ هي ما أثمرت ثمرة وأنتجت نتيجة، وكل معرفة لا ثمرة فيها، ولا نتيجة، فليست بمعرفة على الحقيقة، فالشيخ ﷺ طلب من الله تعالى أن يعرّفه برسوله ﷺ معرفة تُثمر له ثمرة، وتنتج له نتيجة، وذكر ذلك فقال: أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل، ولا شك أن من عرف رسول الله ﷺ حق المعرفة أثمرت له معرفته ﷺ ثمرات وأنتجت له نتائج، منها أن يسلم من موارد الجهل، ويكرع من موارد الفضل، وحقّ لمن تحقق في معرفته ﷺ أن يُكرَم بهاتين الخصلتين العظيمتين؛ لأن معرفته ﷺ تقتضي ذلك، وكيف؟ وقد قرب العارف من سرّ معروفه، وتآلفت روحُهُ مع روحِهِ، والقرب والائتلاف يقضيان بالمتابعة والاقتداء، وذلك سبب لأن يَرِدَ التابع موارد متبوعه، فينكشف لسرّ العارف ولروحه من العلوم اللدنيّة، والأسرار العرفانية ما يزحزحه عن موارد الجهل، ويتصف بمقتضى العلم، فيصير القلب عارفًا والروح عالمًا، ويَرِد هذا العارف موارد الصفاء التي وَرَدَها المقرّبون، وينتهل المناهل التي شرب منها العارفون.

«والكرع» عبارة عن شرب المتعطش اللهفان، التائق إلى الورود والراغب في الازدياد؛ وموارد الفضل هي مشارب أرواح المقربين، وموارد أسرارهم التي لا تُدْرَك بطلب ولا تُنال بسبب، بل بمجرد الفضل الإلهي والعناية الربّانية انتهى.

ثم قال -قدس الله سره-: (**وَاحْمِلْنِي عَلَى سَبِيلِهِ إِلَى حَضْرَتِكَ حَمْلاً مَحْفُوفًا بِنُصْرَتِكَ**) أي: اجعلني محمولاً على متن ظهر طريقه المحمدي؛ لأكون محمولاً لا حاملاً فأهتدي، فإن المحمول مُعَان، ولِنُوره لَمعان، والحامل ربّما امتُهِن، وبدعواه امتُحِن، والحامل سائر، والمحمول طائر؛ إذ الأول سائر بنفسه، والثاني بجذبات قُدْسِه، والحمل على قسمين: حمل

كرامة وإعانة، وحمل خذلان وإهانة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٧٠].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ﴾ [القمر:١٩، ٢٠].

قال القاضي: تقلعهم، رُوي أنهم دخلوا في الشعاب والحفر وتمسّك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح منها وصرعتهم موتى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠] أصول النخل منقلع عن مغارسه ساقط على الأرض، وقيل: شُبّهوا بالأعجاز؛ لأن الريح طيّرت رءوسهم وطرحت أجسادهم، وتذكير منقعر للحمل على اللفظ والتأنيث في قوله: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧] للمعنى، انتهى.

ومن جملة حمل الكرامة الحمل على سبيله القويم وصراطه المستقيم، ولكل واحد من أمته حملٌ في سبيله على قدر طوقه، وصدقه في تَوْقِهِ وشَوْقِهِ فحمل الأخيار فوق حمل الأبرار، وحمل الصدّيقين فوق حمل المتّقين؛ إذ لكل قوم شِرْب معلوم، وحظٌّ مقسوم، فمن المحمولين، من يقطع المسافة المعنوية في سنتين، ومنهم في جمعتين، ومنهم في لحظة أو لحظتين، وهذا مصداق قول السيد الدّاني: من صدق مع الله في النَّفَس الأول وصل إليه في النَّفَس الثاني.

وإنما قال: (**على سبيله**) ولم يقل: على سبيلك -مع أنه عينه- ليثبت الواسطة التي لا ترتفع في مشهد الكاملين المحمولين وإن ارتفعت في منظر الحاملين.

وأيضًا فإن سبيلَهُ أشرف السُّبُل وأسناها، وأقربها وأدناها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨] فنسب السبيل إليه، فاقتدى المؤلف بربّه وأضافها إليه.

(**إلى حضرتك**) أي: منزل قربك، فلا أزال مُستمسكًا بطبيبها الفاتح للمسامّ القلبية، فإن من فارقها لُمحةَ بارق كان لمواطن القرب مُفارق.

والحضرات الإلهية خمسة، قال في «التعاريف»: الحضرات الخمسة الإلهية: حضرة الغيب المطلق وعالمها الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية، وفي مقابلتها حضرة الشهادة المطلقة

وعالمُها عالم الملك، وحضرة الغيب المضاف، وهي تنقسم إلى ما يكون أقرب من الغيب المطلق وعالمه عالم الأرواح الجبروتية والملكوتية، وأعني عالم العقول والنفوس المجردة، وإلى ما يكون أقرب من الشهادة المطلقة وعالمه عالم المثال ويسمى بعالم الملكوت، والخامسة الجامعة للأربعة المذكورة وعالمها عالم الإنسان الجامع لجميع العوالم وما فيها، فعالم الملك مظهر عالم الملكوت، وهو العالم المثالي المطلق وهو مظهر عالم الجبروت -أي: عالم المجّردات- وهو مظهر عالم الأعيان الثابتة وهو مظهر الأسماء الإلهية والحضرة الوحدانية وهو مظهر الحضرة الأحدية انتهى.

(**حملاً**) منصوب على أنه مفعول مطلق (**محفوفًا**) صفة لـ (**حملاً**) أي: محوطًا ذلك الحمل (**بنصرتك**) أي: بمعونتك، فإن الحمل ولو كان حمل كرامة وخلا عن المعونة لم يبلغ صاحبه دار السلامة.

قال الشارح -رحمه الله تعالى-: قوله: (**واحملني.. إلى قوله: بنصرتك**) هذا مطلب الصدّيقين القاصدين إلى حضرة مولاهم جلّ جلاله؛ إذ غاية مقصودهم وأقصى مرادهم ومطلبهم الوصول إلى الحضرة الربّانية على كاهل السنّة المحمدية، والحمل على السبيل هي الجواذب الربّانية التي تجذب السالك إلى الله سبحانه جذبًا على سبيل السنّة المحمدية، فإذا أراد الله سبحانه أن يبلغ السالك إلى حضرته الكريمة حَمَلَهُ إليها على سبيل الاقتداء بالدليل الأعظم والرسول الأكرم نبينا ومولانا محمد ﷺ تسليمًا، فيكون في سلوكه متّبعًا له عليه الصلاة والسلام في أقواله وأفعاله وأحواله، وفي حركاته وسكناته، محفوفًا في جميع ذلك بنصرة الله تعالى، فيكون في سلوكه بربّه لا بنفسه، وهذا من علامات الوصْلة وأمارات القُربة.

والحضرة مأخوذة من المحاضرة، وكثيرًا ما يجري ذكرها على لسان القوم، وكثير من المتصوفة لا يعلمون لها حقيقة، وهي عبارة عن موطن من مواطن القرب والمشاهدة، فإذا كان العبد على بساط الحق مشاهدًا لصفاته فيسمى ذلك الموطن حضرة الأفعال، انتهى.

وقد يقال: إن العبد إذا كان مشاهدًا أفعال الحق تسمى الحضرة التي هو فيها حضرة الأفعال، وإذا كان مشاهدًا أسماءه تعالى تسمى حضرة الأسماء، أو صفاته فتسمى حضرة الصفات، وإذا كان مشهده الذات تسمى حضرة الذات، وما دام العبد ملاحظًا بين يدي الحق سبحانه فهو في حضرة الله، والجالسون فيها ليس للشيطان عليهم سلطان.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني -قدس الله سره - في «منه الوسطى»: وسمعت سيدي علي الخواص -رحمه الله تعالى-يقول: كلما قرب العبد من حضرة الله تعالى كلما كان إبليس له أشدّ ملازمة لعلمه بكثرة ضلاّل الناس إذا ضلت أئمتهم حين خرجوا من حضرة الله تعالى، وأن الجالسين في حضرة الله تعالى ليس له عليهم سبيل، فهو واقف على باب الحضرة ينتظر من يخرج منهم وهو غافل فيركبه كما يركب الإنسان حمارته، ويتصرف فيه بما شاء حسب الإرادة الإلهية، فإن حصل للعبد حضور مع الله تعالى نزل إبليس لوقته أسرع من لمح البصر خوفًا أن يحترق.

واعلم أن حضرة الله تعالى حيث أطلقت في لسان القوم، فالمراد بها شهود العبد أنه بين يدي الله، وأنه تعالى ناظر إليه، فما دام مستصحبًا لهذا الشهود فهو في الحضرة، فإذا احتجب عنه هذا المشهد خرج في أسرع من لمح البصر، والناس في ذلك متفاوتون بحسب القسمة فمنهم من لا يدخل الحضرة -كما ذكرنا- إلا في صلاته، ومنهم من يدخلها في غير صلاته نحو درجة، ومنهم من يدخلها في النهار درجتين وهكذا، وأكملهم من يمنّ الله تعالى عليه بهذا الشهود ليلاً ونهارًا إلا في أوقات يسامح الله تعالى فيها العبد، ومن هنا قال العارفون: إن مراقبة الله تعالى مع الأنفاس ليست من مقدور البشر.

وكان معروف الكرخي يقول: لي منذ ثلاثين سنة في حضرة الله تعالى ما خرجت منها.

وكذلك كان يقول سيدي إبراهيم المتبولي، ولكنه قال: لي سبعة عشر سنة في حضرة الله تعالى ما خرجْتُ منها. ومرادهما ما عدا الأوقات التي يُسامَح الخلق بها. وإلا هذا المقام الإشارة بقوله ﷺ: «**لي وقت لا يسَعني فيه غير ربي**»[1] فنكّر الوقت وهو يصدق بالوقت الطويل والقصير.

وقد كان سهل بن عبد الله التستري يقول: لي ثلاثين سنة أكلّم الله والناس يظنون أنني أكلمهم. فإذا كان هذا حال بعض أفراد من خواصّ أمته ﷺ فكيف بصاحب المقام الأكبر وسيد أهل حضر الله على الإطلاق؟ انتهى.

وقال في «الجواهر والدرر»: وسمعته يقول: حضرة الحق تعالى حضرة بهت، فمن ادّعى أنه حاضر فيها وعبث بيده أو ضحك أو فرح أو حزن فليس هو فيها إنما هو رجل

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٢٦)، بنحوه.

ملبس عليه حاله. انتهى.

ثم قال المؤلف -رحمه الله تعالى- : (وَاقْذِفْ بِي عَلَى البَاطِلِ فَأَدْمَغَهُ) أي: وارمِ بي على الباطل الذي هو ضد الحق فأدمغه أي فأمحقهن قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الأنبياء:١٨].

قال القاضي -رحمه الله تعالى- : فيمحق، وإنما استعار ذلك القذف وهو الرمي البعيد المستلزم لصلابة المرميّ، والدّفع الذي هو كسر الدّماغ بحيث يشق غشاءه المؤدي إلى زهوق الروح تصويرًا لإبطاله به ومبالغة فيه. انتهى.

أي: اجعلني مظهرًا حقّيًا أدمغ الباطل أي: أُبطله وأمحقه، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق، قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١]، واجعلني وجهًا من وجوهك الخاصة النورية التي إذا قذفت بها على ظلمة الباطل لم تُبْق له أثرًا، وهذا معنى كون أبي سعيد الخزان وجهًا من وجوه الحق، أي: لا يواجهه باطل إلا انمحق بظهور نوره؛ لأنه وارث بمورثه انسحق وبنسبته التحق.

ووجه الشيء في الاصطلاح هو ما به الشيء حق إذ لا حقيقة لشيء إلا به تعالى، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥]، وهو عين الحق المقيم للأشياء، فمن رأى قيّوميّة الحق لجميع الأشياء، فهو الذي يرى وجه الحق في كل شيء -كذا في التعاريف- ولمّا كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ نورًا مُحِقًّا للحق ومُبطِلاً للباطل وكان الشيطان ظلمة مثبتًا للباطل لم يثبت عند لقيه، بل كان يفرق منه، ففي الحديث: «**إن الشيطان ليفرق منك يا عمر**»(١).

وفي رواية: «**رأيت شياطين الجن والإنس فرّوا من عمر**»(٢).

وأبدى للفرار سيدي محيي الدين -قدس الله سره- حكمة أخرى في «مفتاح الجهر» فقال: وأمّا اسم عمر فهو ثلاثة أحرف كلها نورانية (ع م ر)؛ لكن الميم فيها سفلى، فإذا علمتَ ذلك، فهمت شدة الحدّة الموجودة في سيدنا عمر ﷺ كونه لم يكن يقبل من السفليات شيئًا، وقوله ﷺ: «**ما ترك الحق لعمر من صديق**»(٣) .

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٥٣).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٦٢١).

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٤٣٤).

قوله ﷺ: «**لو سلكتَ فجًا لسلك الشيطان فجًا غير فجّك يا عمر**»[1] انتهى.

ولمّا كان الحق هو الذي يقذف به على الباطل سأل المؤلف -رحمه الله تعالى- أن يجعله الحق عين الحق الدامغ أو بمنـزلته، والحق الدامغ هو الثابت الذي لا يزول وصف حقيقته كالدّين، فكأنه سأل الله تعالى أن يجعله ثابتًا في المقامات النورية، ماحِقًا ماحيًا للشبهات الظلمية، متخلّقًا بالصفات الدينية متخلّفًا عن السمات الدنيّة، ومن كان كذلك فهو وارث المقام المحمدي في محق كل ضلالة، وسحق ظلام كل جهالة، وصاحب هذا المقام، وهو الغَوْث الذي يُلْجَأ إليه في الكروب، فيُجلي غيومها ويروق المشروب، وهو المسمى بعبد الله؛ لأنه الجامع لما تفرق، فأُعطي الاسم الجامع، وقد قلنا في «الألفية»:

ولا يُسمى القطبُ غوثًا إلاّ إذا غيوم الغمّ عنّا أجلى

واسمٌ به يختصّ عبد الله لجمعِهِ كلّ مقامٍ زاهي

وقوله: (فأدمغَه) منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية.

وقال الشارح -رحمه الله تعالى-: طلب ﷺ أن يكون حجة من حُجج الله الدامغة للباطل، وهذا مقام من مقام الوارثين الذين أقامهم الحق تعالى مقام الخلافة، وجعلهم مصابيح الهدى، وأئمة بهم يُقتدى، فالحق يجري على لسانهم، فبالله ينطقون، ومنه يسمعون، وبه يبصرون، وعنه نائبون، وصاحب هذا المقام يكون آلة لإظهار الحق وإخماد الباطل. انتهى.

ثم قال -رحمه الله تعالى-: (**وَزُجَّ بِي بِحَارِ الأَحَدِيَّة**) أي ادفعني برفق، قال في «المختار»: زجّ الشيء يزُجُّه: دَفَعَه برفق، يقال: كيف تُزْجِي الأيام أي كيف تدفعها، وتَزَجَّى بكذا: اكتفى به، وأَزْجَى الإبل: ساقها، والمُزْجَى: الشيء القليل، وبضاعة مُزْجاة: قليلة، والريح تُزْجي السحاب، والبقرة تُزْجي ولدها أي تسوقه، انتهى.

(**في بحار الأحدية**) وهي عبارة عن مجلى ذاتي ليس للأسماء ولا للصفات ولا لشيء من مؤثراتها فيه ظهور، وهي باطن الوحدة، ومرتبة من مراتب الوجود، وما ثَمَّ أعلى منها على ما نشأ عليه بعض أهل الشهود؛ لأنها عنده عبارة عن مرتبة الإطلاق والذات البحت أي:

---

(١) ذكره العراقي في تخريج الإحياء (٢٦٣١)، وأصله في البخاري (٣/ ١١٩٩)، ومسلم (٤/ ١٨٨٣).

الخالص، ومراتب الوجود قد جعلها الجيلي ﷺ في كتابه «مراتب الوجود» أربعين مرتبة، وذكر منها الشيخ محمد الهندي في «التحفة المرسلة» سبعة وكأنه جعلها أصول الأربعين فيرجع الباقي إليها، وجعل الجيلي ﷺ مرتبة العَمَاء فوق مرتبة الأحدية؛ لأنه جعلها باطن الأحدية وهو اصطلاح ولا مشاحة فيه، وعبارته في «الكمالات الإلهية»: اعلم أن أول التنـزلات الذاتية من حيث الوجود والحكم لا من حيث الترتيب والعدد هو التنـزّل المسمى بالتجلّي العلماء، وإليه أشار بعض المحققين بالتجلّي العَدَمي، الذي لا يتعلق به علم، ولا يطلق عليه اسم الوجود، وهذا التجلي هو باطن الحدية، والأحدية هي اسم التنـزّل الثاني، وهو تجلٍّ وجودي ليس للأسماء والصفات فيها ظهور، وكان هذا التجلّي ثانيًا لأنه وجودي، والتجلي الأول عدمي، والعدم هو السابق والوجود هو اللاحق، وإنما سميّ التجلي العمائي عدمًا لكون الاسم المختص بهذا التجلي معدومًا فلا يوجد في التعريفات الإلهية له اسم، وسرّ ذلك لنكتة لا يمكن شرحها بخلاف الأحدية، والأحدية باطن الوحدة، والوحدة باطن الهويّة، والهويّة باطن الأنية، والأنية باطن الواحدية، والواحدية، باطن الوحدانية، والوحدانية باطن الفرديّة، والفردية باطن الفردانية، والفردانية باطن الألوهية، والألوهية باطن الرحمانية، والرحمانية باطن الربّية، والربّية باطن الملكية، والملكية باطن أئمة الأسماء السبعة النفسية، والأسماء النفسية باطن تجليات أسماء الجلال، وتجليات أسماء الجلال هي باطن تجليات أسماء الجمال، وتجليات أسماء الجمال باطن تجليات أسماء الأفعال. وكل تجلٍّ من هذه التجلّيات أنزل مما قبله انتهى. وعقد لها بابًا في «الإنسان الكامل» فراجِعْه.

وقد شبّه مقامات الأحدية وأسرارها الفردية وتموج علومها وتدفّق فهومها ببحار زاخرة الإمداد فاخرة الإسعاد على طريق الاستعارة بالكناية وأثبت الزجّ ترشيحًا.

قال الشارح -رحمه الله تعالى-: الزجّ: الرمي، ومقصود الشيخ بدعائه هذا أن ينقله من حضرة الفرق إلى حضرة الجمع، والمستغرق في هذه الحضرة مستغرق في بحار الأحدية، فلا يشهد إلا الله، فهو دائم الشهود متصل الورود، منـزّه الرُّوح عن علق التفرقة، ممتعًا بالبقاء الدائم والفناء التام والجمع الصحيح، قد أُعطي الجلوس على منبر التفريد، وأُذِن له في الارتقاء على منار التوحيد، فيعود نظره إليه وجمعه له عليه، فتفنى الرسوم ولم يبق إلا الحي القيوم، فهنالك ابتُلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديدًا انتهى.

ثم قال المؤلف -نفعنا الله به -(وَانْشُلْنِي مِنْ أَوْحَالِ التَّوْحِيدِ):

(وانشلني) أي: أسرع نزعي وإخراجي (من أوحال) جمع وحل وهو الطين الرقيق. (التوحيد) وهو على أقسام: توحيد أفعال، وتوحيد أسماء، وتوحيد صفات، وتوحيد ذات، وقد عقدنا لكل واحد من هذه التواحيد فصلاً في «الألفية».

وينقسم أيضًا إلى توحيد عوامّ، وخواصّ، وخواصّ الخواصّ، فالأول: الإتيان بكلمة الإخلاص، والثاني: توحيد الحق[1] للخلق بفناء الرسم والاسم غير الإخلاص، والثالث: توحيد الحق للحق يشهد ذلك أهل الاختصاص، وقد أجاب الشيخ عبد الله الهروي ﷺ في «منازل السائرين» سائلاً سأله عن توحيد الصوفية بهذه الأبيات، وهي:

مـــا وحّـــد الواحـــدَ مـــن واحـــد إذ كـــل مـــن وحّـــدَهُ جاحـــدُ

توحيـــدُ مـــن ينطـــق عـــن نَعْتِـــه عاديـــة أبطلهـــا الواحـــدُ

توحيـــدُه إيّـــاهُ توحيـــده ونعـــت مـــن ينعتـــه لاحـــدُ

وقد شرحها سيدي أبو بكر الموصلي، وسيدي يوسف العجمي، وغيرهما بما يطول ذكره. وقال سيدي عمر – قدس الله سرّهُ-:

ولـو أننـي وحّـدتُ الحـدْتُ وانـسلَخْتُ مـن آي جمعـي مـشركًا بي صَـنْعَتِي

قال سيدي علي بن عنوان الحموي ﷺ في «شرح التائية الفارضية»[2]: ولو أنني وحدت يعني جعلت نفسي موحدًا لها، ألحدْت: مِلْتُ وزُعْتُ عن طريق حقها، إذ الأمر كما قيل:

مـــا وحّـــد الواحـــد مـــن واحـــد إذ كـــل مـــن وحـــدّه جاحـــد

... إلخ. وقيل في معنى (ولو أنني وحدت): أي: نسبت إليها الهداية مثلاً بدون ضدها.

فقلت: هادية، ولم أقل مضلّة مثلاً ألحدت؛ إذ القرآن جاء بأن الله يهدي من يشاء

---

(١) في الأصل (للحق).

(٢) أتم الله لنا تحقيقه.

ويضل من يشاء، وهذا وإن كان قريبًا في التأويل حسنًا في التنزيل، ولكنه دون ما أشرنا إليه في التحقيق، ولكل طريق فريق، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقوله: (**وانسلخت من آي جمعي**) يعني خرجت من آيات الجمع الكامل حال كوني (شركًا بي صنعتي)؛ إذ كل موجود هو صنعة الحق، قال تعالى: ﴿**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [النمل:٨٨]، وقال: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات:٩٦] انتهى.

والكلام على التوحيد وتفريده وتجريده ليُستدعَى إلى أمد طويل، فلنقتصر على الوقوف برصيده، والمراد من أوحاله أي: المهلكات التي في طريق الوصول إليه، وأما التوحيد نفسه فإنه نجاة وطريق يدل عليه، ولكن في سبيل السُّيَّار مَهامِه كثيرة وأخطار وعوارض وقواطع، ومسالك وعرة سيوفها قواطع، فإذا لم تحفّ المريد العناية الأزلية، وتدركه الجواذب الإلهية، وتسير به أيدي الرعاية، وتحمله على متن الريح الهداية، وإلا ضلّ وتاه في تِيه الجهالة، وربما خلع العذار وغرق في بحر الضلالة، فإن مهاوي السلوك في طريق ملك الملوك كثيرة، ومخاوفه عَسِرة حَظِرة؛ لأنها مناهج خطيرة، ومنشأ هذه الأوحال مقام الجمع الأوّل، بعد الفرق لا الجمع الثاني الذي عليه المعوّل؛ ولذا قال سيدي علي الخواص لتلميذه سيدي عبد الوهاب الشعراني -قدس الله سرّهما -: احذر مقام الجمع فإن شبهته قوية انتهى.

وقال في «الجواهر والدرر»: وقال -أي: لسان الوارد-: ما ظهر القائلون بالحلول والاتحاد إلا من حضرة الجمع فإنها حضرة تزلّ فيها الأقدام، والشبهة فيها قوية لا يقاومها دليل مركب، فمن دخلها ولم يكن له شيخ يُخاف عليه التلف، نسأل الله العافية. انتهى.

غير أن من أسعفه الله بإمداده، ويسّر عليه طريق إرشاده، وظفّره بمرشد يسير به في ليل تلك الهلكات المُتْلفة، وينشله من الوحلات المختلفة، ويعرّفه طريق القرب، ويشرّفه بعتيق الشرب، ويأخذ بيده عند عثرته، وينشّطه من فترته، ويبسط له بساط التحقيق، ويمدّ له موائد التدقيق، ويسعى في كشف حجابه ورفع نقابه، حتى يدرك الأمر على ما هو عليه، ولاتصل أيدي الضُلاّل إليه، ويحميه بحاله، ويدلّه على الأكمل بمقاله، فهذا الذي قد اعتنى الحق به وأراده، وقرّب عليه مسافة التقريب وبلّغه مراده، فإنه لا يسلك الطريق المجهول بغير دليل عارف إلا جهول قال العارف:

لا تسلكنّ طريقًا لستَ تعرِفُه ... بلا دليلٍ فتهوى في مهاويهِ

وقلنا في أوائل «الألفية»:

وبعـــد فـــاعلم أيهـــا المريـــد ... حبـــاك مـــن أفـــضالِه المُريـــد

إن طريـــق القـــوم يـــا مُعـــاني ... أسراره مرمـــوزة المعـــاني

تنبـــو عـــن الأمثـــال والإشراك ... وربـــما توقـــع في الإشراكِ

صـــبًّا سرى مـــن غـــير مـــا دليـــل ... مجانبًـــا للـــنصّ والـــدليل

لهـــا الـــولي قـــد كـــساها عِـــزّه ... فلـــم ينلهـــا غـــير بـــاغي عَـــزّه

فقـــرَّ بـــالعجز عـــن الإدراكِ ... إن كنـــت ذا وجـــدٍ وذا إدراكِ

وإن تُردهـــا رِدْ لهـــا بحـــال ... وزِحْ بهـــا شـــعر شـــعورٍ حـــالي

ولا تكـــن تطلبهـــا بالقـــالِ ... وكـــن لكـــل مـــا عـــداها قـــالي

وكم هلك في هذه الأوحال هالك، لمّا لم تسعفه العناية عند سلوكه في هذه المسالك، سيّما من يدعي السلوك في هذه المسالك وهو ليس بسالك، ويظنّ في نفسه أنه في النور وهو في الظلام الحالك، حتى أن كثيرًا من الواقعين في هذه المهالك نبذوا جانب الشريعة، فوقعوا في مهامه القطيعة، ظنًا منهم أن الشريعة تخالف الحقيقة وهو ليس كذلك، وإنما هي هي عند السالك، وبسبب ظهور هذه الفرقة المفارقة، التي لم تكن بين الهدى والضلال فارقة ألّفْنَا رسالة سميناها: «**السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد**»[1] وحذّرنا من صحبتهم في «النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية» وقلنا في «الألفية»:

شريعـــةُ المختـــار فعـــل الأمـــرِ ... وتـــرك منهـــيّ دوامَ العُمْـــرِ

ونفـــس أمـــر الحـــق للخليقـــة ... عنـــد أولي الحـــق هـــو الحقيقـــة

وقائـــلٌ بـــالفرق غـــيرُ منْـــصفِ ... إلا إذا التعريـــفَ رام فـــاعرفِ

فإنهـــا ســـلبك للآثـــار ... عنـــك إذا شـــهدت فعـــل البـــاري

(١) طبع بتحقيقنا، دار الآفاق العربية.

فيك فلا حولَ ولا قوةَ لَكْ إلا به هذا شهود من سَلَكْ
والشرع حقٌّ وله حقيقةٌ فاتَّحَدَا وهذه رقيقة
ما ثَمّ ما يخالف الشريعة عند فتى نفسٌ له مطيعة
ولا تقل باطنها فربّما أوهم بل قل هي هي تُكْفى الظّما
ومن يخالف فعلُهُ الشريعة فذاك في مَهَامِهِ القطيعة
إذ كل من خالفها زنديقُ وكلُّ من حالفَها صدّيقُ
وجاهل يفرق ما بينهما وليس يُمكن انفكاك عنهما
شريعةٌ يا ذا بلا حقيقة عاطلة إذ لم تكن وثيقة
حقيقةٌ بدونها فباطلة فافهم مُنِحْتَ مُزْن فيضٍ هاطلة
ومن غدٍ مسلوب الاختيار فحكمهُ تسليمه للباري
لا تعترض في فعله عليه إذ عقله خباءه لديه
وإنما يعترض الباقي على عقل له وشرعُ طه قد خلا
يقول ذا حقيقةٌ ذريعة كي يَنبُذَن جانب الشريعة
فاحذر على دينِك من ذي القوم ولا تصاحبْهم ولو في النوم
وقد نما في ذا الزمان شرُّهُمْ حتى سما في الناس جدًّا ضرُّهمْ
ولم يكن لهم هنا من يردعُ من أجل ذا الدينَ الحنيفي ودَّعوا
وعندنا في النعام منهم نفرُ قلوب أهل الحق عنهم نفروا
طالع سيوفَنا الحِدادَ فيهِمُ كي تُمْسي ممن ربهم يهديهِمُ

ومن جملة الأوحال الوقوف مع المقامات والأحوال، وشهود المكاشفات والأعمال، والاعتماد على دون الكبير المُتَعال، ومنها القول بالوصال ونفي الخليقة بالكلية على كل حال، ومنها كشف الأستار، عن وجوه الأسرار عند الأغيار أهل الجحود والإنكار، وقد ذكرنا

وجوب الكتمان في رسالة «تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة»، ومنها قهر الأحوال للطالب حتى يعود مغلوبًا لا غالب، وكل من غلبته أحواله كان ناقص المقام، لعدم قدرته على إعطاء كل ذي حق حقه على التمام، ومنها عدم رجوعه إلى البدايات، ووقوفه مع النهايات، ومنها السكر الموجب لخلع العذار، ومنها الغيبة عن الأسباب والآثار، إلى غير ذلك من الوحلات التي لا تحصى عدة، ولذا قيل لا يمكن السلوك بدون الدليل لصعوبة هذه المراقي وحصول هذه الأوحال في السبيل، ومن جملة أوحال التوحيد شهود الموحّد توحيد الموحّد المجيد، وأنشدوا:

راح الموحـــدُ والتنـــزيه حـــين فنـــي وصـــف الموحـــد والتوحيـــد بالأحـــد

توحيد العوامّ في بحره العقل عام، فكيف بتوحيد الخواصّ الذين خلصوا بغيبتهم عنهم من الأقفاص، فكيف بتوحيد أهل الكمال الذين شهدوا الجمال في الجلال والجلال في الجمال، هناك يتيه العقل ويرجع القهقري، وإذا رام التقدم ردّ إلى ودًا، وأنشد من شاهد حيرة الكل ودري، وفقه السر التوحيدي ولمعانيه في عوالمه قرأ:

لقـــد طفـــتُ في تلـــك المعاهـــدِ كلِّهـــا وســـيرت طـــرفي بـــين تلـــكَ المعـــالمِ

فلـــم أرَ إلا واضـــعًا كـــفّ حـــائر عـــلى ذقنـــه أو قارعًـــا ســـنّ نـــادم

وأنشد من شهد عقل العقول، وإن الواقف معها لِمَثْلُها معقول

عِقَـــالُ عقلـــك بالأوهـــام معقـــولُ قـــد قلَّـــبَ القَلْـــبَ منـــك القـــال والقيـــلُ

تهـــيم في مهمـــة الأوهـــام مـــن ولـــهٍ أفـــاده فيـــك معقـــولٌ ومنقـــولُ

نحتًـــا بـــالفكر معبـــودًا وقلـــت بـــه وصـــفت عقـــدًا بكـــف الحـــق محلـــول

قـــد عـــشتُ مثلـــك دهـــرًا في مكابـــدةٍ ولي فـــؤاد بهـــذا الـــداء معلـــول

فأهل التوحيد التقليدي في وحلة التقليد غرقى، لم يُنشلوا منها إلا بطلب التوحيد الدليلي؛ إذ هو أرقى، وأهل هذا في وهلة العقل والفكر تائهون حيارى، لم ينشلوا منها إلا بالنور الكشفي، فيرجعون بما شاهدوا سكارى، والسكر وحلة واهلة لا ينشلون منها إلا بالعناية الإلهية والهداية الصمدية، وأهل التوحيد الشهودي الفائزون بالنور الوجودي الذين عرفوا الحق بالحق، لا بعقلٍ قاصرٍ وفكرٍ به مُلْحَق هم المُخلِصون المُخلّصون من الأوحال

التوحيدية، لانمحاق أوهامهم بظهور الأنوار الفردية، فرأوا الأمر كما هو عليه عيانًا، وتحققوا به في سرّهم كشفًا وإيقانًا، فطلب الشيخ ﷺ أن يسلك به مسلك هؤلاء السادة الأخيار، ويكرم باستنقاذه من وحلات السُّيَّار.

وقال الشارح -رحمه الله تعالى-: قوله: (**وانشلني من أوحال التوحيد**): «انشلني» معناه: خلّصني، وأوحال التوحيد هي متشابهات أحكامه التي زلّت فيها أقدام كثير من الناس إلا من رحم الله، فترى العارفين إذا غرقوا في بحار التوحيد، وساروا فيها بفُلْك أسرارهم تلاطمت عليهم أمواجه، وهي تجري بهم في موج كالجبال، فلا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم فآواه إلى جبل السنة المحمدية، وآخرون حال بينهم الموج فكانوا من المغرقين. انتهى.

ثم قال ﷺ: (**وَأَغْرِقْنِي فِي عَيْنِ بَحْرِ الوَحْدةِ حَتَى لَا أَرَى وَلَا أَسْمَعَ وَلَا أَجِدَ وَلَا أَحِسَّ إِلَّا بِهَا**): (**وأغرقني**) أي: واجعلني غريقًا (في عين) أي: في حقيقة (**بحر الوحدة**) الذاتية حتى أتطهّر من وسخ الأوحال، وأكون ممن يثبت قدمه وعن منـزل التمكين ما حال، واجعلني مغرقًا في عين يمّ الحقيقة حال كوني موثقًا بأحبال حدود الشريعة والطريقة، فلا يبتلّ وجودي بماء شهودي، صَرْفَ الحقيقة، عربًا عن شهود الخليقة، فأكون ممن حفّه اللطف الإلهي الأسنى فنال به شهود صفات المليحة الحَسْنا، وأغرقني في بحر وجودها عن فنائي رؤيتي بشهودها، لأخلص من وحلات إطلاقاتها وقيودها، ويبدو لي بدر ظهورها في ليالي سعودها، أو يقال: أراد بأوحال التوحيد مقامات الفناء -وهي تسع- ثم طلب إغراقه في حقيقة مقامات البقاء؛ إذ هو أعلى وأرقى، فإن مِنْ شهود الفناء ينشأ القول بمحو الرسم والاسم، ومن شهد هذا المحو ومنه دنا ربما وقع في تيه خرق حجاب الشريعة التي هي المُنى، بخلاف صاحب مقام البقاء فإنه جامع فارق لكل مقامٍ وحالٍ ووارد طارق، فصاحبه ذو تحقيق، وصاحب الفناء ذو تمزيق، والوحدة الذاتية في اصطلاح هذه الطائفة العليّة عبارة عن علمه تعالى بذاته وصفاته وبجميع الموجودات على وجه الإجمال من غير تمييز بعضها عن بعض، وهذه مرتبة التعيّن الأول، ولا يتوهم أن الموجودات لها وجود في هذه المرتبة ولو وجود إجمال؛ لعدم صحته عقلاً وشرعًا، فإن السرير قبل تفصيله من الخشب لا وجود له في الخشب ولا وجود للخشب فيه، ويقال إنه يجمل فيه لأنه يتفصل منه لا أنه ينفصل شيء من شيء بل ينفصل لا شيء من شيء، ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهذه المرتبة المذكورة تسمى مرتبة الوحدة

المطلقة عن جميع القيود لعدم التفصيل فيها، وتسمى الحقيقة المحمدية أيضًا؛ لأنها مجمل ما تفصل ويتفصل منها جميع العوالم المختلفة، كذا في «شرح التحفة المرسلة» لشيخنا الشيخ عبد الغني ملخّصًا.

وقال الجيلي ﷺ في كتاب «المناظر»: منظر الوحدة للوحدة منظر يجلّ عن أن يدركه المخلوق، فليس فيه راحة بوجه من الوجوه، وفي هذا المشهد يسلب الحق تعالى العالم ما ألبسهم من حُلَل الدعاوى الكاذبة المُشْعِرة بوجود موجود سواه، فإذا تعرّت عن ذلك تجلّت أنواره في الموجودات بغير حلول ولا مَزْج ولا نقص، بل بحكم الوحدة الإلهية التي هو عليها منذ كان، فيطلع العبد على هذا المنظر بعد أن تُسلب عنه عبديته وموجوديته، فيكون مالا يدخل في العبارة، فهو يدرك بلا وجود إدراك وهذا في العقل مُحال، وقد وجدناه ذوقًا وعيانًا وحقًا وحقيقة فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، آفة هذا المنظر في حق العبد انعدام الأسماء والصفات عنه، فلا يشهدها وهو مجاب. انتهى.

والمعنى: اجعلني مستغرقًا في شهود نفس الوحدة، والفرق في الاصطلاح له ثلاث درجات: الأولى: استغراق العلم في عين الحال، والثانية: استغراق الإشارة في الكشف، والثالثة: استغراق الشواهد في الجميع، ولكل درجة رجال ولكل رجال مجال.

(حتى) بمعنى إلى أو كي (لا أرى) أي: بعين بصيرتي وبصري (ولا أسمع) أي: يسمع الروح الباطن، وسمع الجسم الظاهر (ولا أجد) من الوجدان (ولا أحس) من الإحساس، أي: لا أدرك بالحواس الخمس (إلا) أداة حصر (بها) أي: بالوحدة الذاتية المطلقة، ويشير طلبه إلى حديث قرب الفرائض والنوافل وهو قوله ﷺ: «**إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله الذي يمشي بها**»[1].

وفي رواية: «**وفؤاده الذي يعقل به، ولسانه الذي يتكلم به**».

وفي أخرى: «**ومن أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا، دعاني فأجبته، وسألني**

(١) رواه البخاري (٦٠٢١)، بنحوه.

فأعطيته، ونصح لي فنصحت له، وإن من عبادي من لا يُصلِح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك» وذكر مثل ذلك في الفقر والصحة والسقم وقال: «**إني أدبّر عبادي لعلمي بما في قلوبهم، إني عليم خبير**»(١).

وقال الشيخ عبد الرحمن الفاسي في «شرح الحزب الكبير» قوله: والمحبّة الجامعة يعني السالبة للتفرقة والبينونة بها تقتضيه من المعية والوصلة، واعتبر بحديث التقرب وفي بعض رواياته: «فإذا أحببته كُنْتُه» انتهى.

قال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في الباب ٣١٨: المراد بـ«كُنْتُ سمعه وبصره..» إلخ انكشاف الأمر لمن تقرب إليه تعالى بالنوافل لأنه لم يكن الحق تعالى سَمْعَه قبل التقرب ثم كان تعالى الله عن ذلك وعن العوارض الطارئة قال: وهذه من غُرَر المسائل الإلهية. انتهى.

وقال الشعراني ﷺ في «اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر»: فإن قلت: فلما ذكر الله تعالى في هذا الحديث الصور الحسّية من السمع والبصر ونحوهما دون القوى الروحانية كالخيال والحفظ والفكر والتصور والوهم والعقل؟ فالجواب كما قاله الشيخ في الباب: إنه تعالى ما ذكر الحواس الظاهرة إلا لكونها مفتقرة إلى الله تعالى لا إلى غيره بخلاف القوى الروحانية، فإنها مفتقرة إلى الحواس، والحق تعالى لا ينـزل منزلة من يفتقر إلى غيره بخلاف من هو مفتقر إلى الله تعالى وحده لا يشرك به أحدًا، فقد بان لك أن الحواس الظاهرة أتمّ؛ لأنها تهب القوى الروحانية ما تتصرف فيه وما به يكون حياتها العلمية، والله أعلم. انتهى.

وكان المؤلف ﷺ طلب استصحاب مقام الشهود الذاتي الذي هو نهاية مرمى أبصار المحققين، فإن الغريق في النور لا يرى غيره، أي اجعل شهودي دائمًا التعين الذاتي الأول، الذي هو المطلب الأقصى إذ عليه المعوّل، وفي الحديث: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا وفي لساني نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، ومن فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، ومن أمامي نورًا، ومن خلفي نورًا، واجعل لي في نفسي نورًا وأعظم لي نورًا**»(٢).

فطلب ﷺ أن يكون غريق النور، ومن كان كذلك كان دائم الحضُور، مرفوع الستور،

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (٢/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٣٢٧)، ومسلم (١/ ٢٢٥).

يرى النور بالنور ويسمع به ويجد ويحسّ كذلك، وإذا تحقّق في سر هذا المشهد السالك علم أن الكُلّ به والمرجع إليه، فمنه الظهور وإليه ترجع الأمور، فغاب بصر الظهور عن إدراك النور؛ لأن بالنور الإدراك لا بغيره من البراقع والستور، فيرى به المستغرق ويسمع ويجد ويحسّ فإذا لا رؤية ولا سماع عند من فهم حقائق الأمور، وهذا هو المشهد الذاتي الأعلى والمقصد الأغلى الذي أشار إليه العارف الرباني سيدي عمر بن الفارض الدَّاني بقوله:

أرومُ وقد طالَ المدى منك نظرةً وكم من دماءٍ دون مرماي طُلَّتِ

وقد تكلمنا على هذا البيت في رسالة (رفع الستر والرِّداء عن معنى قول العارف: أروم وقد طال المدى) فافهمْ وإلا فتَفَهَّمْ.

قال البكري -قدس الله سره-: فَتَفَهَّمْ تَعْلم، وجاهد تُشاهِد، يا مريدي ومن مزيدي تُعطى.

قال الشارح -رحمه الله تعالى-: قوله: (**وأغرقني**).. إلى قوله (**إلاّ بها**) أراد أن يكون مستغرقًا مستهلكًا في حقائق التوحيد غائبًا في الشهود عن الوجود، وهذا هو الفناء التام المعبّر به عند أهله بفناء الفناء، وصاحب هذا المقام فانٍ عن فنائه، فإنه مع الحق بعين الجمع فرداني الصفات وحداني الأفعال، وإلى هذا أشار بقوله: (لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أُحسّ إلا بها) وهذه المعاني تضيق عنها العبارة لدقة معناها وإنما يشير إليها من بُعد. انتهى.

ثم قال -رحمه الله تعالى-: (**وَاجْعَل الحِجَابَ الأَعْظَمَ حَيَاةَ رُوْحِي، وَرَوْحَهُ سِرَّ حَقِيقَتِي، وَحَقِيقَتَهُ جَامِعَ عَوَالِمِي، بِتَحْقِيقِ الحَقِّ الأَوَّلِ**).

(**وَاجْعَل الحِجَابَ الأَعْظَمَ**) الذي هو نبينا ﷺ (**حياة روحي**)[1] أي: صيّر هذا المشهد

(١) أي: اكشف لي الحجاب عن ذلك حتى أدرج في الدوالك، فأرى وجهه المحمدي في كل طرفة عين، ويزول عني في مشهدي الأين والبين.

فأقول: إذا حدّثت بهذه النعمة خِلّاني ليعرفوا ما الذي به حلاّني أنه خصّني برؤية وجه زال عن كل من رآه الشقاء وهو ﷺ روح جسد الكونين، وعين حياة الدارين على الكشف الجلي الإلهي الباهر، واليقين، والرشف العلي الزاهي الظاهر للمتقين.

قال سيدي محيي الدين -قدس الله سره المتين المُبين- في الباب التاسع والثلاثين والثلاث مائة من «فتوحاته»: واعلم أن العالم اليوم يفقد جمعية محمد ﷺ في ظهوره روحًا وجسمًا، وصورة، ومعنى، نائم لا ميت، وأن =

مشهدي على الدوام، فإنّ من شهد أن النبي ﷺ حياة روحه - أي: أنه سر الحياة التي حَيِيَتْ بها روحه وعقله وكلّه، وتحقّق أن كل ما به من حياة وصفات ومدد وفتوح هو من إمداده وإسعاده كان مستمدًا منه في كل نَفَس؛ لأنه المُمِدّ للعالم بكل ذلك، وكان متلقّيًا منه وآخذًا عنه، فينال من الإمداد المحمدي ما لا يفي ببيانه بنان فيهدي ويهتدي، ومن شهد أنه حياة روحه شهد أنه حياة روح العوالم كلها؛ لأنه ﷺ روح الأرواح وسرّ الأسرار ونور الأنوار؛ لأن به حياتها واشتقاقها وانفلاقها، فكان أصل الأُصول ووصل الوُصول، وهو الوُصول وبه الحُصول، وإذا شهد المكاشف بطريق المنازلة والوجدان أنه روح روحه عن يقين وعيان ارتفعت أستاره، وانقشعت سُحُبه فبدت أنواره، وزالت الوسائط ما بينه وبين روحه الشريفة، وصار يأخذ عنه حيث زالت الحُجُب الكثيفة، ومن هنا كان أحد السادة إذا عسرت عليه مسألة أدخل رأسه في طوقه، ثم يخرجه ويقول: سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال لي في

=

روحه الذي هو محمد ﷺ هو في العالم في صورة المحل الذي هو فيه روح الإنسان عند النوم إلى يوم البعث الذي هو من العالم في صورة المحل الذي هو قبيل يقظة النائم هنا، وإنما قلنا في محمد ﷺ على التعيين: إنه هو الروح الذي هو النفس الناطقة في العالم أعطاه الكشف، وقوله ﷺ أنه: « **سيد الناس** ».

والعالم من الناس فإنه الإنسان الكبير الجرم، والمقدّم في التسوية، والتعديل ليظهر عنه صورة نشأة محمد ﷺ كما سوَّى الله جسم الإنسان وعدَّله قبل وجود روحه، ثم نفخ فيه من روحه روحًا كان به إنسانًا تامًا، أعطاه ذلك خلقه، فهو نفسه الناطقة، فقبل ظهور نشأته ﷺ كان العالم في حالة التسوية والتعديل كالجنين في بطن أمه، وحركته كالروح الحيواني منه الذي صَحت لربه الحياة، فأَجِلّ فكرك فيما ذكرته لك، فإذا كان يوم القيامة حيي العالم كله بظهور نشأته مكملة ﷺ موفور القوى، وكان أهل النار الذين هم أهلها رتبتهم في إنسانية العالم مرتبة ما ينمو من الأشكال فلا يتصف بالموت ولا بالحياة، وكذا ورد فهم النَّص من رسول الله ﷺ: «**إنهم لا يموتون فيها، ولا يحيون**». وقال الله تعالى فيهم: ﴿**لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ**﴾ [الأعلى:١٣] والملائكة من العالم كالصور الظاهرة في خيال الإنسان، وكذلك الجن فليس العالم إنسانًا كبيرًا دالاً بوجود الإنسان الكبير الكامل الذي هو نفسه الناطقة كما أن نشأة الإنسان لا تكون إنسانًا إلا بنفسها، ولا تكون كاملة، هذه النفس الناطقة من الإنسان إلا بالصورة الإلهية المنصوص عليها من الرسول ﷺ، فكذلك نفس العالم الذي هو محمد ﷺ حاز رتبة الكمال بتمام الصورة الإلهية في البقاء، والتنوع في الصورة وبقاء العالم به، فقد بان لك حال العالم قبل ظهوره ﷺ أنه كان بمنزلة الجسد السوي، وحال العالم بعد موته بمنزلة النائم، وحال العالم ببعثه يوم القيامة بمنزلة الانتباه، واليقظة بعد النوم. ثم قرر في هذا الباب مما هو العجب العجاب.

معناها كذا وكذا، ويأتي بالعقد الفريد والجوهر النّضيد، وكأن هذا الإدخال من باب ستر الحال، وإلا فالمكاشف يسأل ويجاب بدون إدخال واحتجاب، سيما من كانت روحه الشريفة هي المشهودة المُفيضة لروحه من بالأسرار المنيفة.

وأنشد البكري – قدس الله سره – في سريان نوره في الوجود، وأنه مطلق عن القيود والحدود قوله:

سَـــكنَ المدينـــةَ جـــسمُه لكنّـــه مـــلأ العـــوالمَ كلَّهـــا إشراقُـــهُ

فقول المؤلف ﷺ: (**واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي**) أي: اكشف لي عن ذلك وصيره لي مشهدًا، فإنه روح جسد الكونين، وعين حياة الدارين، أو المعنى أحيني به حياة خاصة يحصل لي بها الاتصال الخاص بروحه الشريفة، فأخلص من هذه ا لأقفاص وأشاهد سرّ كونه المادّة الوجودية للعالم الكوني، وأنه الحياة السارية في جميع الكائنات أزلاً وأبدًا، فأحيى بهذا الشهود الكشفي اليقيني حياة الأبد، وأختصّ منه بميراث علم وافر يدفع الجهل والالتباس، فأتحقق عنده بقوله تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾[الأنعام:١٢٢] وأمرّ بسبب هذا المشهد على سائر المقامات وأحيى بنورها ثم أخرج عنها إلى حيث لا مقام؛ فأكون محمدي الإرث على الكمال، يتربّى السير في كل حال.

قال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في «فتوحاته»: ولا يقال أن أحدًا من أهل هذه الطريقة أنه محمدي إلا لشخصين: إما شخص يختصّ بميراث علم من حكم لم يكن في شرع قبله فيقال فيه محمدي، وإما شخص مع المقامات ثم خرج عنها إلى لا مقام كأبي يزيد وأمثاله، فهذا أيضًا يقال فيه محمدي، وما عدا هذين الشخصين فينسب إلى نبي من الأنبياء. انتهى.

(**وروحه سرّ حقيقي**) أي: وأشهدني أن روحه الشريفة سرّ حقيقي؛ لأن به قيامها وانتظامها، فإنه حقيقة الحقائق، وعنه تكونت سائر الخلائق لقوله: «**أنا من الله والمؤمنون مني**»، ولأجله خلقت الأفلاك، وانفتق رتق الأملاك.

قال العارف الربّاني أبو عبد الله محمد الدمرداشي -قدّس الله سره- في كتاب «معرفة حقيقة الحقائق» بعد كلام نفيس محكم التأسيس: وفي التحقيق الأوضح أن حقيقة الحقائق

هي رتبة الإنسانية الكمالية الإلهية الجامعة لسائر المراتب كلها، وهي المسمّاة بحضرة الجمع وبأحدية الجمع وبمقام الجمع، وبها تتم الدائرة، وهي أول مرتبة تعيّنت في غيب الذات الجامعة لسائر المراتب كلها، وهي المسماة بحضرة الجمع وبأحدية الجمع وبمقام الجمع، وبها تتم الدائرة، وهي أول مرتبة تعينت في غيب الذات، وهي الحقيقة المحمدية بالأصالة ﷺ، وهي أبطن الظهور ومعدن البطون، ولمّا كانت الحقائق إنّما هي ظهورات وتعيّنات حصلت عن حقيقة الحقائق المسمّاة بالتعيّن الأول كان هذا المظهر الأكمل الأظهر أعني محمدًا ﷺ سبيلاً لإظهارها في ظاهريتها من كتم قدسها ونور قدمها، فظهرت تلك الحقيقة الجامعة المحمدية على ما هي عليه من غير تبديل ولا تغيير في ذاتها، بل مجرد تعيّن حصل للحقيقة المحمدية عند ظهورها بهذا المظهر الأكمل الأطهر، وأنشدوا:

حَقِيقَــةُ ظَهَــرَتْ فِي الْكَــوْنِ قُــدْرَتَهَا ... فَــأَظْهَرَتْ هَــذِهِ الأَكْــوَانَ وَالحِجَبَــا

تَنَكْــرَت بِعِيُــونِ الْعَــالِمِين كَــمَا ... تَعَرّفْــت بِقِلُــوبٍ عُــرَّفٍ أُدَبَــا

فَــالْخَلْقُ كلّهُــمُ أَسْــتَار طَلْعَتِهَــا ... وَالأَمْــر أَجْمَعَهُــم كَــانَوا لَهَــا نُقُبَــا

مَــا فِي التَّــسَتّر بــالأَكْوَانِ مِــنْ عَجَــبٍ ... بَــلْ كَوْنَهَــا عَيْــنَهُم مَمَــا يَــرَى عَجَبًــا

فإن ارتقى أحد من الأنبياء والرسل والأولياء والصالحين إلى تلك المرتبة- أعني: أحدية الجمع- فهو بالتبعية له عليه كل الصلاة كل السلام لا بالأصالة، وبإمداده إياهم بحقيقته الأصلية الأزلية -عليه الصلاة والسلام- وأما الحقيقة الإنسانية الكمالية التي هي صورة معنوية للحضرة الإلهية المسماة بحضرة المعاني وبالتعيّن الثاني، فهي الإنسان الحقيقي المعبّر عنه بالعالم الأكبر؛ لأنه أصل العالم.

ثم قال: فصل: الإنسان الكامل مظهر للألوهية والربوبية من حيث ظهورها وتصرفها فيه، فصار الإنسان الكامل مظهرًا للحقيقة الجامعة المسماة بحقيقة الحقائق من حيث جمعيتها للمبدأ والمعاد، وهي الحقيقة المحمدية فافهم واقبل ما جاء إليك من الدرك والمعاني، ولهذا جاء في الزبور أو في غيره من الكتب الإلهية المنزلة: «**يا ابن آدم خلفتك لأجْلي..**»[1] الحديث.

فكان جميع ما سوى الإنسان خُلِق للإنسان أعني الإنسان الحقيقي المتقدم ذكره، وهو

(١) لم أقف عليه.

منشؤها ومرجعها ومنتهاها المشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:٤٢]، وهو حقيقة الحقائق ومنشأ الخلائق،وعلة العلل ومبدأ الأول، والأب الأول معنى لا صورة انتهى كلام الشيخ محمد دمرداش.

ولقد حُكى أن الشيخ محمد المذكور قال: عرضت على المقامات مقامًا بعد مقام- وكأنه لم يرض بها- حتى عرُض علي المقام لمحمدي فأطرقت خجلاً، ولقد أشرت إلى هذا العرض في القصيدة التي امتدحته بها، وأودعتها «النّحلة النصرية في الرحلة المصرية»، ومطلعها:

أَتبْغَـــــي صَرَّف إِنْعَـــــاشِي ... وَصرَّف الـــــصَّارِف الْـــــوَاشِي

وَقُرَّبَـــا مِـــنْ حِمَـــى سَـــلْمَى ... بِـــــأَنَسٍ دُونَ إِيحَـــــاشِ

وَمَحْـــوَ الْغَـــيْنِ عَـــنْ عَـــيْنٍ ... بِـــمَا يَفْنَـــى لإِغْبَـــاشِ

وَتُكْـــسى حُلّـــة التَّقْـــوَى ... وَتُعْطَـــى خَـــيْرُ أَرْيـــاشِ

فَـــإِنَّ أَمَّلْـــتَ ذَا بَـــادِر ... وَلَا تـــصغ لِطَيّـــاشِ

وأَمّ مُحَمَـــدًا مَـــنْ قَـــدْ ... دَعَـــوْهُ بالـــدِّمِرْدَاش

مَقَامـــاتُ الـــوَلاَء عُرِضَـــتْ ... عَلَيـــهِ نُوْرَهـــا غَـــاشِي

وَمِنْهَـــا اخْتَـــارَ أَسْـــنَاهَا ... فَكَـــان كَمِثْـــلِ بَحْـــاش

فَـــصَارَ مُحَمَـــدِيّ الـــسَّيْرِ ... يَهْـــدِي كُـــلّ حَزبَـــاش

وصاحب المقام المحمدي آتيه ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب:١٣] قال سيدي محيي الدين-قدس الله سره- في معنى الآية: أي؛ لأنه لا غاية لكم تَقفُون عندها في طريق المعرفة بالله، ومعلوم أن رجوعهم سفر لاقتناصهم علومًا لم ينالوها في عروجهم، فسفر المحمدي ورجوعه من الحق إلى الحق من حضرته إلى حضرته فافهم. انتهى.

ولسان حال الوارث المحمدي ينشد:

مـــشاربُ القـــومِ شـــتّى ... مـــن كلِّهـــا صـــارَ يـــشرب

فلا يتقيدّ بشرب دون آخر ولا بحال، ولا مقام لجمعه بين الجميع، ولا يزال في ارتقائه

من مقام إلى آخر، وكلّما خلعت عليه خلعة كمال وقف عندها حتى يظهر له النور المحمدي، ويرفعه عن المقام الأول إلى الثاني، وهكذا في كل حال ومقام، فلا وقوف إلا من حيث الاستئذان للأدب المعروف عند أهله، فإنهم الأقربون الذين هم أَوْلى بالمعروف، ومحطّ رحال سؤال المؤلف ﷺ على طلب هذا المقام المحمدي الأكمل والمنـزل الأشمل الذي هو نهاية مطلوب أهل التحقيق؛ لأن ما ثَمّ مقام أعلى منه عند التدقيق، غير أن أهله تتفاوت فيه أذواقهم، وتختلف في الرفعة أشواقهم وأتواقهم.

(وحقيقته) أي: واجعل حقيقته بالجعل التخصيصي **(جامع عوالمي)** وذكّر جامع لإضافته إلى المذكّر، أي: وارفع برافع ستوري عن وجه شهودي وحضوري؛ لأراه ﷺ بعين حقيقة حق اليقين جامع عوالمي الظاهرة والباطنة، واستعمل الشيخ هنا الترقّي في الطلب، فإنه أولاً سأل أن يجعل الحجاب الأعظم حياة روحه، ثم ترقّى فسأل بأن يشهد أن روحه سرّ حقيقته جامع عوالمه الظاهرة والباطنة، ويستغرق الشهود ويطلق من كل القيود، والإنسان الكامل في نفسه عالم كبير، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾ [النحل: ١٢٠]، وبقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ:

وتحسَبُ أنكَ جرمٌ صغيرُ وفيك انطوى العالمُ الكبيرُ

بل قد احتوى على عوالم كثيرة كبيرة، فإن القلب عالم واسع يسع كل شيء؛ لأنه وسع تجلي الحق الذي لم تَسَعْهُ السماوات والأرض، فهو يضاهي العرش العظيم لوسعه كل شيء، ولكن القلب أوسع منه.

قال سيدي محيي الدين ﷺ في كتابه «مواقع النجوم» في الفَلَك القلبي: اعلم يا بني- وفَّقَنا الله وإياك- أن القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه، فإن أزاغه كان بيتًا للشيطان ومَحَلاً للخسران وموضع نظر المطرود من رحمة الله، ومعدن وساوسه، وحضرة أمانيه، ومهبط مردته، وخزانة غروره، وإن أقامه فذلك قلب المؤمن التقي الورع الذي قال فيه: «**ما وسعني أرضي ولا سمائي ووَسِعني قلب عبدي المؤمن**»[1]، فقلبٌ يَسَع القديم كيف يُحِسُّ بالمحدث موجودًا؟

---

(١) تقدم تخريجه.

وفي هذا المقام تحقق شيخ الشيوخ أبو يزيد البسطامي ﷺ حيث قال: لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة وُضِعوا في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسَّ به... ثم أطال في ذلك والنفس عالم كبير؛ لأنها تضاهي الكرسي، والمخيّلة من الإنسان تضاهي اللوح، والعقل الكلّي منه يضاهي القلم، فكما أن القلم يثبت في اللَّوْح مقادير الوجود كذلك العقل يثبت في المخيلة مقادير الأشياء ويضاهي العناصر بطبائعه، والسماوات السبعة وأفلاكها بقواه الروحانية، وقد ألّف سيدي محيي الدين -قدّس الله سره- كتابًا سمّاه «الموازنة» ذكر فيه مضاهاة العالم الإنساني للعالم الكياني فَعُلِمَ من هذا أن الإنسان جامع لعوالم كثيرة، فلهذا قال المؤلف رحمه الله تعالى: «جامع عوالمي» وإذا شهد المكاشف أنه جامع عوالمه رأى الكل فيه، فيصير عائمًا في بحر وجوده المحمدي الذي لا تُدرك خوافيه، وهناك يصح له كمال الاقتباس، والأخذ عنه بدون شك والتباس، ويقام هذا المكاشف خليفة على الخليقة، لاستمساكه بالعروة الوثقى، وسلوكه على أكمل طريقة، وهذا الهمام هو الذي نسخت أقلام إلهام الحقيقة المحمدية كتاب تقريبه، ونفخت الأرواح المحمدية في صور تدريبه أرواح تهذيبه، فعاد مرآة فيضها الأقدسي الأزهر، وجامع سرّها الأنسي، فقُلْ فيه الجامع الأزهر، ومع إشراق أضواء الشموس المسبوحية على هذا الإمام، وغلبة الصفات الروحية، فيستحيل عليه القيام بالحقيقة المحمدية قيامًا يحيط بأسرارها، ويستحوذ على رفيع بديع أطوارها، وإنما يحيط التابع على قدر الاستعداد، والقبول لا على قدر سعة دائرة السيد الرسول، فتلك دائرة لا يحيط بكُنْهها عارف، ولو كان من صافي شُرَيْباتها غارف، وإذا كانت الحقيقة المحمدية، والذات الأحمدية لا يدري كُنْهَهَا وارث كامل، ولا يحيط بها محمول ولا حامل، فكيف بالذات النزيهة العلية الرفيعة، فلا يَعرف الحقَّ بما هو عليه من الكمال إلا الحقُّ، فما عرف الله على الحقيقة إلا الله.

ومن هنا كان سيدي ياقوت العرش ﷺ يقول: يا حيرة، يا دهشة، يا حرف لا يُقرأ، فما عرف أحد الحق من حيث ذاته على الكمال، وإنما يُعرف من حيث الأسماء والصفات وكنوز أسرار الذات لا الذات من حيث هي هي بكل وجوهها، ولذا قلنا في «ورد السحر»: إلهي عرّفني حقائق أسمائك الحُسْنى، وأطلعني على رقائق دقائق معارفك الحَسَنا، وأشهدني خفي تجلّيات صفاتك، وكنوز أسرار ذاتك، ومن قال من العارفين بإدراك تجلّي الإطلاق ذوقًا فمراده لدى الفناء لا حال البقاء، فما رأى إطلاق الحقّ إلا الحقُّ.

قال القونوي ﷺ في «شرح الفاتحة»: ومن المتفق عليه أن حقيقته تعالى لا يُحيط بها علم أحد سواه؛ لأنه لا يتعيّن عليه حكم مخصوص، ولا يتقيدّ بوصف ولا يتميّز ولا يتعيّن ولا يتناهى، وما لا يتميّز بوجه لا يمكن تعقلّه؛ إذ العقل لا يحيط بما لا ينضبط ولا يتميز عنده، فإن تعيّن ولو بنسبة ما من وجه علم بتعينه من حيث ما تعيّن به وبحسبه لا مطلقًا، وهذا القدر من المعرفة المتعلقة بهذا الغيب إنما هي معرفة إجمالية حاصلة بالكشف الأجلي، والتعريف الإلهي الأعلى، الذي لا واسطة فيه غير نفس التجلّي المتعيّن من هذه الحضرة الغيبية غير المتعيّنة، وقد سبق التنبيه عليها وعلى كيفية حصولها... إلخ.

وعلى هذا يحمل جواب سيدي عمر بن الفارض لسيدي إبراهيم الجعبري – رضي الله عنهما- لّما قال له: يا سيدي هل أحاط أحد بالله علمًا؟ قال: فنظر إليّ نظر مُعْظِّمٍ لي وقال: نعم إذا حيّطهم يحيطون يا إبراهيم وأنت منهم، أي: إذا أراد أن يحيطهم أفناهم عنهم، وخلّصهم منهم، وأبقاهم به له، فرأوا به فإذا لا رؤية، وأنشدوا:

قُلُــوبُ الْعَــارِفِينِ لَهَــا ذِهَــاب ... إِذَا هِــي شَــاهَدتْ مِــنْ لا تَــرَاهُ

وَذَا مَــنْ أَعْجَــب الأَشْــيَاءِ فِينَــا ... نَــرَاهُ وَمَــا نَــرَاهُ إِذْ نَــرَاهُ

دلَــيْلِي أَنْ يَقُــول رَمِيــتُ عَبْــدِي ... فَــلاَ تَعْجَــب فَــمَا الرَّامِــي سِــوَاهُ

والحاصل أن الذات العلية من حيث الكُنْه لا تُدرك ولا تُعلم ولا تُرى ولا يُحاط بها لا دنيا ولا أُخرى، ومن قال: بالإدراك فمراده من بعض الوجوه، وإذا كان الأنس بالله لا يمكن لعدم المناسبة، فكيف بالإدراك والرؤية؟ ومن قال بالأنس فمراده بما يفيضه الحق لا بالحق، وكان مُرادنا بسط الكلام في هذا المقام؛ لأنه مزلّة أقدام، سيّما على ضعفاء الأفهام، ولكن قَصَدْنا الاختصار، ولنذكر عبارة الشارح -رحمه الله تعالى- قال: قوله: (**واجعل الحجاب الأعظم**) إلى قوله: (**عوالمي**) المراد بالحجاب الأعظم ما تقّدم ذكره من أنه ﷺ حجاب الله الأعظم القائم له بين يديه، وتقدّم إنما كان كذلك لأنه حجب العقول وعقلها بعقال شرعه المستقيم عن النظر إلى حقائق الذات العظيمة؛ إذ ليس لها إلى ذلك سبيل، وأودع الله تعالى نبيّه ﷺ هذا السر العظيم؛ ليكون رحمة ونعمة للوجود، وحياة للأرواح حيث حجبها عمَّا فيه استهلاكها وفناؤها، ولا قوة لها على كشف حقائق، ولو كُشِف لها عن ذلك في هذه الدار ورُفِعَتْ عنها الحجُب؛ لتفرّقت الموجودات وتمزّقت وتدكدكت كما تدكدكَ الجبل عند التجلّي

للكليم عليه السلام، ولهذا اتفق أهل المعرفة على أن الله سبحانه لا يتجلى لأحد من أوليائه، ولا ينظر إليه أحد منهم في هذه الدار إلا من وراء الحُجُب التي حجبهم بها عن إدراك كُنْه ذاته العظيمة، ولولا تلك الحُجُب لتلاشى الوجود وماتت الأرواح، فكان الحجاب الأعظم حياتها، فطلب الشيخ أن يكون الحجاب الأعظم حياة روحه إشارة إلى ما قلناه، فافهم.

وقوله: (**وروحه سرّ حقيقتي**) أراد أن يكون الروح المحمدي سرّ حقيقته لتكون حقيقته محمدية، وقوله: (**وحقيقته جامع عوالمي**) أراد الحقيقة المحمدية؛ إذ هي جامع العوالم اللطيفة الإنسانية. انتهى.

ثم قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: (**بتحقيق الحق الأول**) أي: أُقْسم عليك بسرّ تحقيق الحق الأول[1]، أي: بثباته؛ لأنه مِنْ حَقِّ الشيء إذا ثبت، وحققتُه تحقيقًا إذا جعلته ثابتًا، والمراد من الحق الأول النور المحمدي؛ لأنه أول شيء ثبت له وصف الأولية، ومن أسمائه ﷺ: (الحق).

قال شارح «الدلائل»: وأما اسمه ﷺ (الحق) فقال تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ**﴾ [يونس:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى**﴾ [القصص:٤٨] إلى غير ذلك، ومعناه هنا ضدّ الباطل، مِنْ حق إذا ثبت، أي: هو الثابت الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر ولا يعلو عليه الباطل؛ والمتحقق صدقه وأمره، أو معنى كونه

---

(١) (الحق الأول) الذي هو الإنسان الكامل، وعليه دون غيره المعول، وهو القلم الأعلى الإلهي، والعقد الأول، والحق المخلوق، والعدل والروح القدسي الأنزه الأكمل.

قال سيدي محيي الدين -قدَّس الله سرَّه- في الباب الأحد والسبعين والثلاثمائة في أثناء خطبته البليغة الفصيحة فأول موجود أداره سبحانه تلك الإشارات إدارةً إحاطية معنوية، وهو أول الأفلاك الممكنات المحدثات المعقولات، وأول صورة ظهرت في هذا الفلك أي: صورة الروحانيات المهيّمات التي منها القلم الإلهي الكاتب العلام في الرسالات، وهو العقل الأول الفيَّاض في الحكميات والإنباءات، وهو الحقيقة المحمدية، والحق المخلوق به، والعدل من أهل اللطائف والإشارات، وهو الروح القدسي الكلي عند أهل الكشوف، والتلويحات، فجعله عالمًا حافظًا باقيًا تامًا كاملاً فياضًا كاتبًا من ذوات العلم بحركة يمين القدرة عن سلطان الإرادة، العلوم الجاريات إلى نهايات وهو مستوى الأسماء الإلهيات إلى آخرها.

حقًا أي: ذا حقّ أي: جاء بالحق للخلق من ربه؛ وهو ما جاء به من القرآن والدين المتين، وجُعِلَ عينَ الحقّ على هذا مبالغة. انتهى.

قال الجيلي قدس الله سره- في «الكمالات الإلهية»: وأما اسمه الحق فإنه ﷺ كان متحققًا بهذا الاسم متصفًا بالصفة الحقّيّة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس:١٠٨] يعني: محمدًا، وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [ق:٥] يعني: محمدًا، ذكره القاضي عياض -رحمه الله عليه- في كتبه «الشفا».

وأيضًا فإن الله تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الحجر:٨٥]، وورد في الحديث في رواية جابر: «أن الله تعالى أول ما خلق روح محمد ﷺ ثم خلق منه العرش والكرسي والسماء والأرض وجميع الموجودات»(١)، والجمع بين هذه الآية وهذا الحديث أن يقال: «إنه ﷺ هو الحق الذي خلق الله تعالى منه السماوات والأرض»(٢) فهو ﷺ الحق المخلوق انتهى.

وقد تُكُلِّمَ على هذا الحق المخلوق في «الإنسان الكامل» في الباب الحادي والخمسين منه، فراجِعه.

ومن أسمائه ﷺ: «روح الحق» قال شارح «الدلائل» -رحمه الله تعالى-: واسمه ﷺ (روح الحق) فيحتمل أن يكون المراد بالحق الدين والإيمان، وهو ﷺ روح الإيمان الذي قام به وجوده، فلولاه لم يكن له وجود ولا ظهور في الخلق، وهو أصله وعنصره، وفيه قرارُهُ ومنه يتفرّق وينبعث إلى غيره ويمدّ أهله، ويحتمل أن يكون الحق من أسمائه تعالى، وإضافة الروح إليه كما في حق عيسى عليه السلام في تسميته بروح الله، وهي إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك للتشريف، وروحه ﷺ هو إنسان عين الأرواح وأبوها وسرّ وجودها، وأوّله صادر عن الله ﷻ، وهو الروح الأعظم والخليفة الأكبر ﷺ، وأيضًا هو ﷺ روح الله الموضوع في الوجود الذي به قوامه وثباته، ولولاه لاضمحلّ وذهب. انتهى.

وهل يجوز أن يقسم العبد على الله بغير صفاته؟ قال شارح «الحزب الكبير» عند قوله

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

ﷺ: (**أقسمت عليك ببسط يديك**... إلخ): جاء في بعض الأحاديث أنه ﷺ علّم الناس الدعاء فقال: «**اللهم إني أقسم عليك بنبيك محمد نبي الرحمة**»(١).

قال عز الدين: فإن صح فينبغي أن يكون مقصورًا عليه؛ لأنه سيد ولد آدم، ولا يقسم على الله بغيره.

قال البرزالي: وكان شيخنا الفقيه -يعني: ابن عرفة- يختار الجواز ويحتج بسؤال عمر بالعباس في قضيّة الاستسقاء، وبقول العبد الذي استسقى بالبصرة: بحبّك لي إلا ما سقيتنا الساعة، وقال الحطّاب: إنما هذا توسل وهو غير القَسَم، انتهى.

ولعلّ موضع الخلاف بينهما بعد اتفاقهما في حمل القَسَم في الحديث على التوسل كما ورد في طريق آخر: «**اللهم إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة**»(٢) إنه هل يجوز التوسل بغير النبي أو لا؟ فأجازه ابن عرفة لقضية الاستسقاء وغيرها، ومنعه ابن عبد السلام، وأما القَسَم فلا يجوز بحال بغير الله خلافًا لابن حنبل ومن تبعه، وأما كلام الحطّاب ففيه نظر من حيث حمله القَسَم على حقيقته، وفهمه أنه الخلاف في ذلك، ولذلك ردّ استدلال ابن عرفة، ويشهد لما ذكرناه من أن الخلاف إنما هو في التوسل بغير النبي ما وقع في «المعيار» في جواب لأبي القاسم العبدوسي بعد ذكره أن الحي ينتفع بالميت في الزيارة قال: ولكن هل يتوسل به الله تعالى؟ فيقول: بحق هذا الصالح افعل لي كذا؟ هذا نص معروف للكرخي ﷺ في «الحلية»، أو إنما يعتقد أن البقعة بقعة مباركة يدعو الله فيها من غير توسل، هذا هو الذي عمل عليه الشيوخ. انتهى.

وعلى التوسل يحمل ما في «رسالة القشيري» عن معروف الكرخي ﷺ: من كانت له إلى الله حاجة فليقسم عليه بي، وكذا وجد بخطّ سيدي أبي العباس المرسي عن شيخه الشاذلي أنه كان يقول له: إذا عرضت لك إلى الله حاجة، فأقسم عليه في كل ذلك بمعنى توَسّل، وأمّا ما وقع في «الحزب» من قوله: (أقسمت عليك ببسط يديك... إلخ) فهو قَسَم بصفات الله تعالى، فهو على حقيقته ولكنه خاص بالمحبوبين المدلّين على الله، كما يشير إليه حديث:

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ١٣٤)، والترمذي (٥/ ٥٦٩)، بلفظ: «إني أتوجه إليك ..».

(٢) تقدم آنفًا.

«**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرّه**»[1] ويحتمل حديث: «**والله لا تجتمع بنت عدو الله مع بنت حبيب الله أبدًا**»[2] في قضية خطبة علي بنت أبي جهل على فاطمة وقد قال الحاتمي ﷺ: إن لله عبادًا يتحكّمون عليه فيما يخطر لهم فيجيبهم إلى ذلك، وذلك لمعرفتهم به حين أحضر لهم ذلك فهو المتحكّم غيبًا وهم المتحكّمون عينًا. انتهى.

وقد نقل في «القوت» في آخر كتاب «المحبة» حيث تكلّم على الخلة عن الجنيد أن العبد في هذا المقام يعلم أن الله يحبه ويقول العبد: بحقي عليك وبجاهي عندك، أو يقول: بحبّك لي، وهؤلاء مدلون على الله ﷻ ومستأنسون به، وهم جُلَساء الله قد رفع الحشمة بينه وبينهم، وزالت الوحشة بينه وبينهم علموا أن الله يحبهم، وأن لهم عنده جاهًا ومنـزلة فضلاً منه تعالى وفرط كرم، أو كما قال، وهذا خارج عن الفتوى، ولا يعرفه غير أهله، وبالجملة فلا يكون الإدلال والقَسَم إلا عن استغراق واستهلاك في الحقيقة بحيث يكون صاحب تلك الحالة مترجمًا عن ربه بربّه، وليس لغيره ذلك إلا على سبيل التلاوة لأذكاره والحكاية عنه، والله أعلم. انتهى.

ولّما كان النبي ﷺ أعز الخلق وأكرمهم على الله أقسم عليه به لتحقق أن الحق لا يخيب من توسل بجنابه الشريف ومقامه المنيف، وقد أرشد إلى التوجه به إلى ربه في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم والنَّسائي وهو: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه؛ لتقضي لي، اللهم فشفّعه فيّ» لوروده قصة قال شارح «الدلائل»: ولفظ النسائي: «أن عمر أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يُكشف لي عن بصري. قال: أو أدعك؟ قال: يا رسول الله، إنه قد شق عليّ ذهاب بصري، قال: فانطلق فتوضأ، ثم صلّ ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه إلى ربي بك أن يكشف لي عن بصري، اللهم شفّعه فيّ وشفّعْني في نفسي، فرجع وقد كشف الله تعالى عن بصره». انتهى.

وهو أعظم الخلق، ومطلوب الشيخ أعظم المطالب، فسأل الله تعالى وأقسم عليه بأعظم الخلق أن ينيله أعظم المطالب وممّا يدلّك على أنه أعظم الخلق ما في حديث سلمان عن ابن عساكر قال: هبط جبريل على النبي ﷺ فقال: إن ربّك يقول لك:

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٩٦١)، ومسلم (٣/ ١٣٠٢).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (٥/ ١٤٧).

«**إن كنتُ اتخذتُ إبراهيم خليلاً فقد اتخذتُك حبيبًا، وما خلقتُ خلقًا أكرم علي منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرّفهم كرامتك ومنـزلتك عندي، ولولاك ما خلقتُ الدنيا**»[1].

وصحّح الحاكم والبيهقي قول الله تبارك وتعالى لآدم عليه السلام: «**لولا محمد ما خلقتك**»[2]، وفي حديث آخر: «**لولاه ما خلقتك ولا خلقت سماءً ولا أرضًا**»[3].

قال الشارح -رحمه الله تعالى-: قوله: (**بتحقيق الحق الأول**) قَسَمٌ أقسم به عليه تعالى، أي: أسألك بتحقيق الحق الأول، وهو تحقيق الحق بالحق الأزلي الذي سبق كل حق، نعم كلُّ حق إنما تحقق به فهو حق الحق انتهى.

ثم قال المؤلف -رحمه الله تعالى-: (**يَا أَوَّلُ يَا آخِرُ يَا ظَاهِرُ يَا بَاطِنُ اسْمَعْ نِدَائِي بِمَا سَمِعْت بِهِ نِدَاءَ عَبْدِك زَكَرِيَّا، وانْصُرْنِي بِكَ لَكَ، وَأَيِّدْنِي بِكَ لَكَ، وَاجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ غَيْرِكَ** (ثلاثًا).

(**يَا أَوَّلُ يَا آخِرُ يَا ظَاهِرُ يَا بَاطِنُ**): قال القاضي-رحمه الله تعالى- عند قوله تعالى: (**هو الأول**): السابق على سائر لموجودات من حيث إنه مُوجدها ومُحْدثها، (**والآخر**) الباقي بعد فنائها ولو بالنظر إلى ذاتها مع قطع النظر عن غيرها، أو هو الأول الذي يَتَبدّى منه الأسبابُ وينتهي إليه المسبّبات، أو الأول خارجًا والآخر ذهنًا (**والظاهر والباطن**) الظاهر وجوده لكثرة دلائله حقيقة، والباطن ذاته فلا يكتنهها العقول، والغالب على كل شيء والعالم بباطنه، والأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين، والمتوسطة للجمع بين المجموعتين (**وهو بكل شيء عليم**) يستوي عنده الظاهر والخفيّ انتهى.

وقيل: الأول الذي ليس لوجوده بداية، والآخر الذي ليس لوجوده نهاية، والظاهر الذي لا يخفى من حيث صفاته، والباطن الذي لا يدرك من حيث ذاته، وقيل: الأول الذي لا يتوقف وجوده على غيره، والآخر هو الذي لا نهاية، بل هو نهاية كل نهاية، وغاية كل غاية،

---

(١) رواه الديلمي (٥/ ٢٢٧)، مختصرًا.

(٢) الحاكم (٢/ ٦٧١)، والخلال في السنة (١/ ٣٠٠، ٣٤٠)، وأبو الشيخ في الطبقات (٣/ ١٤٤)، قال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٦٤): وأقول لكن معناه صحيح وإن لم يكن حديثًا، قلت: وكذلك قال القاري.

(٣) ذكره الشيخ الأكبر في «الفتوحات المكية» (١/ ١٣١).

فأوّليته عبارة عن صفة وجوده الذي ليس له نهاية وغاية، والظاهر هو الذي ظهر في كل شيء، الباطن هو الذي لا يدركه شيء، فهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بدون احتجاب والباطن الذي لا تكيفه العقول والألباب، وقيل: الأول بالوجود وابتدائه بالإحسان، والآخر الذي يرجع الأمر إليه وتفضّله بالغفران، والظاهر لنفسه، فما زال ظهرًا، والباطن عن خلقه، فلم يزل باطنًا، فهو الظاهر بالكفاية والباطن بالعناية، وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي -قدس الله سره- يقول في معنى هذه الآية: قد محق الحق تعالى الأغيار بهذه الآية؛ فإنه جعل نفسه عين ما ظَهَر وعين ما بَطَن، وكذا هي حضرة الذات المقدسة انتهى.

والكلام على هذه الأسماء الأربعة يطول، وقد تكفّل بذلك أئمة فحُوُل.

فإن قلت: لم ألّف المصنّف بياء النداء المؤذنة بالبُعد مع أنه تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد؟ قلنا: لملاحظته بُعد المكانة والبون الذي، بين رتبة العبد وربه؛ لأنه بُعد الحق وقُربه ليس كبعد الأجسام وقربها لتعاليه وتقدّسه عن ذلك، فقربه كناية عن قرب العبد من منازل إمداده؛ وبُعده إشارة إلى إقصاء العبد عن باب إسعافه وإسعاده، واعلم أن الاستغاثة بأسمائه تعالى على ثلاثة أقسام: بياء النداء، وبـ (أل) وبدونهما، فالأولى للمريد المبتدئ، و(أل) للمتوسط، والأخير للمنتهي، فالمبتدئ مثلاً يقول: يا رحمن، والمتوسط: الرحمن، المنتهي: رحمن؛ لأن الاسم إذا تجرّد عن (أل) وياء النداء كان أسرع إجابة، والمبتدئ لمّا كان ضعيفًا عن الثبات لدى سُرعة الإجابة ذكر بياء النداء، فتبعد الإجابة فيكثر توجهّه وبه يَتَقَوَّى عزمه، ثم إذا تقوّى ذكر بـ (أل) التي هي لفظ تعريف، فيتعرّف الحق له بإمداد فوق إمداده الأول، وهي لا تشير للبعد، ولكنها زيادة على الاسم فلهذا كانت تبعد الإجابة، وإذا كمل استعداد الطالب وتهيّأ لقبول فيض الحق تعالى ذكر الاسم مجردًا، فكان الفتح أسرع، وإذا بلغ العبد مقام الكمال ساغ له الذكر بأي صيغة أراد لأنه صار غريق بَحْر القُرب، فلا يرى بعدًا وليس عنده بعد.

وقد يتنزّل الكامل إلى رتبة المبتدئ، ليرشد التائه وبنوره يهتدي، ولذا أتى المصنف بياء النداء لتنزله في إيصال النداء قال الشارح -رحمه الله تعالى-: ثم قال: (يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن) نداء على جهة الاستغاثة بالمنادي، وإنما ناداه بهذه الأسماء دون غيرها من أسمائه الحسنى لما تضمّنته من معنى الأزلية والقيوّمية وشمول أوصاف الألوهية، قال الرازي -رحمه الله- في «لوامع البيان»: حدّثني شيخي ووالدي أنه لمّا نزلت هذه الآية يريد قوله تعالى:

﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد:٣] استقبل المشركون المدينة وسجدوا، وذكر أن لأهل الإشارات فيها نحو أربعة وعشرين تأويلاً ذكَرَها كلّها في كتابه المذكور. انتهى.

ثم قال المؤلف رحمه الله تعالى: (**اسمع ندائي**) أي: اقبل واستجب يا سميع دعائي (**بما**) أي: بالذي (**سمعت به**) أي: قبلت بسببه (**نداء**) أي: دعاء (**عبدك**) المضاف إليك إضافة تشريف (**زكريا**) بن برخيا من ولد سليمان بن داود، وقيل زكريا بن آذن وكان زكريا وعمران أبو مريم متزوجين بأختين الواحدة عنده، والأخرى عند عمران وهي أم مريم، ولهذا كفل زكريا مريم فإن أباها كان قد مات، وقيل: إنه ضعف عن كفالتها لأزمة أصابتهم، فكفلها جريج النجار، فلما بلغ زكريا الكبر رزقه الله يحيى من زوجته تلك، فيحيى ابن خالة مريم، ووُلد عيسى بعد ولادة يحيى بثلاث سنين، وقيل: ستة أشهر، فاتّهم بنو إسرائيل زكريا بمريم فهرب منهم.

كذا في «المسامرات» لسيدي محيي الدين -قدس الله سره- ونداؤه ﷺ ما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء:٨٩] قال القاضي: وحيدًا بلا ولد يرثني ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩] فإن لم ترزقني من يرثني فلا أبالي به ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء:٩٠] أي: أصلحناها للولادة بعد عقرها، أو لزكريا بتحسين خلقها وكانت جردة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعني: المتوالدين أو المذكورين من الأنبياء ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾ يبادرون إلى أبواب الخير ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ ذوي رغب أو راغبين في الثواب، راجين للإجابة أو في الطاعة، وخائفين العقاب أو المعصية ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠] مُخبتين ودائمي الوجل، والمعنى: أنهم نالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال انتهى.

والمعنى أي: اقبل دعائي ولا تجعل فيه تخيرًا، بل اجعل الإجابة تابعة للسؤال كما كانت إجابة زكريا عليه السلام تابعة لسؤاله، واستجب مني دعائي كاستجابتك له، فإنك لم تُرُدَّ سؤاله لسرّ التخصيص الأزلي العلي، ولمّا كانت مطالبه السابقة واللاحقة مطالب خاصة الخاصة سأل أن يكون نداؤه مجابًا كإجابتهم؛ إذ هم الأحباب الذين لا يُرُدُّ سؤالهم، ولا يُضيّع أعمالهم،ولعلّ الشيخ رضي الله عنه عرّض بذكر نداء زكريا عليه السلام ومراده به منه تعالى أن يهبه الذرية الطيّبة المباركة سواءً

كانت روحانية أو جسمانية، وقد استجاب الحق سبحانه وتعالى سواءً كانت روحانية أو جسمانية، وقد استجاب الحق سبحانه وتعالى سؤاله وبلّغه آماله فرزقه ولدًا روحانيًا مباركًا، وهو الإمام الشاذلي الهمام، الذي عمّت بركاته وطمت إمداداته، وعلا به الطريق وغلا به الزّيق[1].

قال الشارح ﷺ: قوله: **(اسمع ندائي)** إلى **(زكريا)** هذا وما بعده إلى قوله: **(وحل بيني وبين غيرك)** هي الأربعة المطلوبة المستغاث لأجلها، وهي مطالب عظيمة، مطالب العارفين، والمراد بنداء زكريا هو قوله: ﴿**رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٩] قال الله تعالى: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ**﴾ [الأنبياء: (٩٠)] فطلب الشيخ هنا ﷺ أن يستجاب له كما استُجيب لزكريا عليه السلام.

تنبيه: مقاصد الناس في مطالبهم وإجابة دعائهم مختلفة، فالعامّة مرادهم إجابة الدعاء، وإعطاء مسألتهم لا غير، لا ينفذ أرواحهم، ولا يلوح في فكرهم غير ذلك، فهؤلاء عَبِيد أهوائهم وطالبون لحظوظهم، وهذا غير منهاج العبودية، والخاصّة جعلوا هذا المقصد تبعًا لمقصد أعلى ومقام أكمل وأسنى، وذلك أنهم قصدوا بمطالبهم وسؤالهم إظهار وصف العبودية من الفقر والاحتياج والعجز، وغير ذلك من أوصافها، والتعلّق بأوصاف الربوبية من الغناء المطلق والقدرة الكاملة، ولم ينسوا حَظّهم من فضل مولاهم ﷻ، فهؤلاء أعطوا لكلّ ذي حق حقه ولكلّ ذي قسطه، هؤلاء عَبِيد الله إلا أن فيهم شائبة حظّ وبقيّة هوى، وأكمل منهم وهم خاصّة الخاصّة، أعرضوا عن المقصد الأول، ولم يلتفتوا إليه أصلاً، واعتبروا المقصد الثاني لكنهم جنحوا إلى مقصد أتمّ وأكمل، ومقام أعلى وأفضل، وذلك أنهم قصدوا بمطالبهم ومسائلهم الجلوس على بساط العبودية والتمَلّق بين يدي الربّ جلّ جلاله من لذة المكالمة، وفوائد المخاطبة وثمرات المساورة ونتائج المُسَاءلة، وهذا المقصد هو أفضل الأبواب التي يُدخَل على الله سبحانه منها، وأهل هذا المقصد يستوي عندهم العطاء والمنع والضرّ والنفع بما حصل لهم من المقصد الأكمل، والمراد الأفضل ولم يفُتْهم من مقاصد مَنْ دونهم شيء، لمّا توجّهوا إلى الله ﷻ، وأقبل عليهم أقبل عليهم كلُّ شيء، وانفعل لهم الوجود، فهم يتصرّفون فيه تصرّف في المَلِك في المملكة، فلا يحتاجون إلى شيء من الوجود، إذ هو في

(١) أي الزين والتزين الحسن.

أيديهم وتحت طوعهم، فلتكن على يقين أن الشيخ ﷺ ونفعنا به- هو من أهل المقام الأكمل والمقصد الأفضل، ومُراده في سؤاله ومطلبه ما أراده خاصة الخاصة، وأسألته تدلّ على ذلك حيث قال: (**وانصرني بك لك** ...إلخ) انتهى. لنذكر عبارة الشيخ الأكبر ﷺ في أول «الفصّ الشيثيّ» مختصرة ملخّصة فنقول: اعلم أن العطايا ذاتية وأسمائية، والأُولى: لا تكون إلا عن تجلٍّ ذاتي لكن مِنْ خَلْف حجاب الأسماء، الثانية: عن تجلٍّ أسمائي، ومنها ما يكون عن سؤال معيّن أو غير معيّن وعن غير سؤال لفظي؛ لأن الحاليّ لابدّ منه للفقر اللازب، أو بالاستعداد، وهو لا يشعر به صاحبه إلا إذا كان كاملاً مطّلعا على الأعيان في علم الحق، وأهل هذا الصنف منعهم من السؤال علمهم بأن لله فيهم سابقة قضاء، فهم قد هيئوا محلّهم لقبول ما يَرِد منه، وقد غابوا عن نفوسهم وأغراضهم، ومن هؤلاء من يعلم أن علم الله به في جميع أحواله هو ما كان عليه في حال ثبوت فيه قبل وجودها، ويعلم أن الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه من العلم به، وهو ما كان عليه في حال ثبوته، فيعلم علمْ الله من أين حصل؟وما ثَمَّة صنف من أهل الله تعالى أعلم وأكشف من هذا الصنف، فهم الواقفون على سر القدر وهم على قسمين: منهم من يعلم ذلك مجملاً، ومنهم من يعلمه مفصّلاً، والثاني أعلى وأتمّ، والسائلون على أقسام: منهم من بَعَثَه على السؤال الاستعجال الطبيعي، ومنهم الباعث لهم علمهم أن ثَمّ ما لا يُنال إلا بالسؤال، فيسألون رجاء أن يكون ما سألوه معلّقًا على سؤالهم، ومنهم من يسأل امتثالاً للأمر الإلهي، وهؤلاء لا همّة لهم في نَيْل ما سألوه من معيّن أو غير معين أو حاليًّا أو استعداديًّا، وإنما همّتهم امتثال الأمر.

فإذا اقتضى الحال سؤالاً سألوا أو تفويضًا سكتوا مع علمهم أن الطلب الحاليّ والاستعداديّ واقع فلا يتوقعون إجابة، والإجابة على قسمين: إجابة بالسؤال وهي تحصل بحضُور الوقت وتبطئ ببعده، وإجابة بلَبَّيْكَ لما في الحديث: «**إذا قال العبد: يارب يارب قال الله: لبّيك عبدي سَلْ تُعْط**»(١).

والظاهر من حال الشيخ أنّ طلبه لمجرد الامتثال، وهو حال أهل الكمال لغيبته عن حظّه ومراده، ويشهد له قوله: (**وانصرني بك لك**) أي: تَوَلَّ نصرتي بذاتك، فإنّ من تنصره لا غالب له، لأنصر دينك الحق وقولك الصدق، لا لغرضٍ نفساني أو مقصدٍ فاتن فان، ولأكون

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ١٩٦).

ممّن نصر الحق بالحق فنصره الحق وثبّت أقدامه ومنحه النصر والفتح وأزال شكوكه وأوهامه.

(وأيّدني بك لك) أي: قوّني وشدّدني بحولك وقوّتك، فإنه لا حول ولا قوّة إلا بك، لأقهر كل مُعارض اخْتَطَفَتْه العوارض، وأَرُدَّ كل شارد إلى المغتسل البارد، فيطهّر من رجسه ويتخلّص من قيد حدسه، ولجعل بتأييدك لي كلمتك هي العليا، وكلمة أعدائك السفلى، فأكون خليفتك في بلادك على كافة خليقتك وعبادك[1].

(واجمع بيني وبينك) أي: ارفع الحجاب بيني وبينك ليَفنى البَيْن وتبقى العين ويزول الشك والأَين والمَيْن، فيَصِل العبد إلى مقام العِنْديّة، فتسمو وترتفع المقامات العبدية، وهناك يُكشف سرّ الجمع، ويمُحى البين من البين بكينونية البصر والسمع، ويتّضح الأمر اتّضاحًا لا يُطلب بعده المزيد، لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا فلا يفيد، وصاحب هذا المقام يُسمى: الواجد؛ لأنه علم الأمر على ما هو عليه بتعليم الواجد، وإلى هذا الوجدان الإحساني أشار سيدي عبد القادر الجيلاني -قدس الله سِرَّه وبقربه أسَرَّه- بقوله:

لم يُبْـــقِ لي أمـــلاً ولا أمنيّـــةً ... أرجـــو ولا موعـــودةً أترقّـــبُ

مـا زلـتُ أرتـعُ في ميـادين الرِّضـا ... حتـى بلغـتُ مكانـةً لا توُهـبُ

وإلى هذه المكانة الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] قال الجيلي -قدس سره- في «الإنسان الكامل»: يعني أنهم نالوا ما هو لهم فليس ذلك بموهوب، حتى يكون ممنونًا، بل ظفروا بما اقتضته حقائقهم التي خلقناهم عليها من الفطرة، فكل ما نالوه إنما هو باستحقاق جعلناه لهم، لو كان الكل من خزائن الجود فإن التجلّيات الذاتية لا تسمى

(١) قال المصنف: قال الله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧] قال في «الجلالين»: وأيدناه أي: قويناه بروح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة أي: الروح المقدسة جبريل لطهارته يسير معه حيث سار فلم تستقيموا، انتهى. والمعنى: أيدني كما أيدت المصطفين من عبادك حتى انسلخوا عن المقتضيات البشرية، وارتقوا عن حضيضها إلى أوج التدليات الروحية، وتحققوا بقرب الفرائض والنوافل وتخلقوا بعد ما تخلَّقوا بالأخلاق الإلهية عن كل خلق نازل سافل، فإبراء أكمة عين الفؤاد بما خصصتني من الإمداد والأبرص الذي ساءت صفاته، وكثرت آفاته، ويحيي لي ميت الجهل بنور العلم الذي نهلتني منه أعذب نهل فأكون عيسوي محمدي القدم، وأشرب، وأطرب بنغمات معارفي في كل طروب، ومن لا يطرب (بك) أي: بعنايتك، وسابق هديتك وحولك وطولك (لك) وللأجل أن أدلَّ التائهين عليك وأوصل المتقطعين إليك.

موهوبة، بل هي أمور استحقاقية إلهية، وإلى هذا المعنى أشار شيخنا الشيخ عبد القادر الجيلاني في قوله: ما زلت أرتع... إلخ. انتهى.

(**وحُلْ بيني وبين غيرك**) بحجاب قربك وشهودك، وكن أنت حجابي بنفي حُجُبك وقيودك، حتى لا يقع شهود شيء إلا عليك، فتكون أقرب إليّ من كل مشهود، فلا أرى غيرك في الوجود موجود، ومن لوازم الجمع بالله وعلى الله الغيبة عمَّا سواه لكن لمّا كان المقام مقام بسط وانبساط أكد وطلب بَسْط هذا البساط، قال تعالى: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾ [طه: ١٧، ١٨] قال شارح «الحزب»: قوله: (**وحُلْ بيننا وبين غيرك**... إلخ) هو كقوله شيخه وأستاذه سيدي عبد السلام ﷺ في «صلاته» المشهورة: (**واجمع بيني وبينك وحُلْ بيني وبين غيرك**) وذلك يكون بغيبة العبد عن وجوده،واستغراقه في نور شهوده، كما أشار إلى ذلك الجنيد بقوله:

وجودي أَنْ أغيبَ عن الوجودِ ... لِمَا يبدو عليَّ من الشهودِ

وللتستري ﷺ من جملة مقطعاته وأزجاله:

أنا حيَن أخلو بمحبوبي ... نَغِبْ عن الوجود

ونقرأ سرّ مكتوبي ... في سورة العقودِ

يشير إلى قوله: ﴿**أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾ [المائدة:١] يعني قوله تعالى: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة:٥٤] لأن جميع ما يشيرون إليه ويغتبطون به إنما هو أسرار المحبة الحقيقة وفيها ما يسدّ ويضيق عن نطاق البيان، وإنما هي رموز وإشارات يعرفها أهلها ذوقًا ووجدانًا؛ لأنها توجد فتعلم، ولا تعلم فَتُوجد، وإنما سبيل غيرهم أن يسلم لهم يؤمن بوهبه مولاهم لهم وتخصيصهم بما به تولاَهم، رزقنا الله حبهم، ومنّ علينا بالانخراط في سَلكهم والكَوْن منهم. انتهى.

وقال الشارح -رحمه الله تعالى-: فهذه مطالب تدلّ كلها على الانحياز إلى الله تعالى، والاكتفاء به والاستناد إليه والجمع به، وليس بها شائبة غيريّة ولا ركون إلى غير الأحدية ولا تعرّفُ لسوى الفردانية؛ فقوله: (**انصرني بك لك**) طلب النصر به سبحانه دون وسائط وأسباب، هذا معنى قوله: (**بك لك**) مراده أن تكون نصرته له على القيام بالتكاليف الدينية

والوظائف الشرعية حتى يكون عبدًا على الحقيقة، وقوله: **(وأيّدني بك لك)** هو بمعنى الأول؛ إذ النصر والتأييد بمعنى واحد؛ لأن كل لفظ منهما يصحّ موقع الآخر ويدل على معناه، وحيث ما أُرْدِفَ لفظُ بآخر، فالمراد التألق وتنويع اللفظ وجزالته، وفي طلب الشيخ ﷺ النصر والتأييد به سبحانه دليل على عدم تعلق الأكوان وإعراضه عنها، وفي قوله: **(لك)** دليل على اشتغاله بحق ربه، وإعراضه عن حظوظ نفسه، وقوله: **(واجمع بيني وبينك)** طلبُ لمقام الجمع تنـزّهًا عن الإقامة مع الأغيار وترفُّعًا عن الاستئناس بالآثار، وقوله: **(وحُلْ بيني وبين غيرك)** تبرّيًا من القواطع المكدّرة لصفو شرب أهل مقام الجمع؛ إذ الأغيار قاطعة، وصاحب مقام الجمع إذا لم يُحَلْ بينه وبينها تكدّر صفو مشربه انتهى. ثم قال المؤلف ﷺ: **(الله الله الله)** جاء في الحديث الشريف: «**إن الله تعالى وِتْر يحبّ الوتر**»(١).

ولهذا كان يستعمل نبينا ﷺ الثلاث في كثير من أقواله وأفعاله، ففي الحديث: «كان يعجبه أن يدعو ثلاثًا وأن يستغفر ثلاثًا»، وفيه «كان يشرب ثلاثة أنفاس يسمّي الله في أوله ويحمد الله في آخره، وكان يستاك عرضًا ويشرب مصّـًا ويتنفس ثلاثًا ويقول: «هو أَهْنَأ وأَمْرأ وأَبْرأ»(٢) وفيه: «كان يسلّم ثلاث مرات» وفيه: «كان يُعيد الكلمة ثلاثًا لتُعقل عنه.

وكان ﷺ يغسل مقعدته ثلاثًا.

وكان ﷺ له مكحلة يكتحل منها كل ليلة ثلاثة في هذه وثلاثة في هذه.

وكان ﷺ لا يعود مريضًا إلا بعد الثلاث.

وكان ﷺ لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث.

وكان ﷺ يأكل بثلاث أصابع ويستعين بالرابعة، وكان يُحبّ أن يفطر على ثلاث تمرات أو شيء لم تُصِبْه النار» وكان إذا قال الشيء ثلاث مرات لم يُراجَع.

وكان ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثًا، قال: «**اللّهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٦٢).

(٢) رواه أبو داود (٣/ ٣٣٨).

(٣) رواه مسلم (١/ ٤١٤).

وكان يصوم من غُرّة كل شهر ثلاثة أيام وقلّما يفطر يوم الجمعة.

وعنه ﷺ: «**حُببَ إلي من دنياكم النساء والطيب وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة**».

وفي رواية الغزالي: «**حُبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب**... إلخ»[1].

قال ابن غانم المقدسي ﷺ في كتاب «إفراد الأحد عن أفراد العدد»: وتعلّم من هذا الحديث أنه لم يُرِدْ بهذه الثلاثة التمتّع للشهوة، وذلك لأنه جاء بلفظ مفعول ما لم يُسَمّ فاعله بقوله: «حبِّبَ إليّ» فكأنه لم يكن الحُبّ من نفسه ولا تلقائه، بل كأنه أُلْزِم بذلك، الثاني: أنه قال: «من دنياكم» وأضافها إلينا ولو أحبّها أضافها إلى نفسه، فأما قوله ﷺ: «الطيب» فما أحبَّهُ إلا لُملاقاة الملائكة ومُناجاة الحق سبحانه وتعالى فَأَحبَّ أن يتطيّب لذلك لا لأنه شهوة نفسه، وأما النساء فلأنه أراد التناسل بين العباد وكثرة الخلق؛ لتكثر أمته، قال ﷺ: «**تناكحوا تناسلوا فإن مباهٍ بكم الأُمَمَ يوم القيامة**»[2].

وأما ما كان حظّ قلبه ومراد ربّه فأضافه إلى نفسه وإلى أحبّ الأعضاء إليه وأعزّها عليه فقال ﷺ: «**وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة**»[3].

فلا يتوهّم متوهّم أنه أحب شيئًا من الدنيا للتمتع والتلذّذ فيسيء الظن بنبيّه، كيف؟ وقد عُرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض، وبطحاء مكة ذهبًا فأبى أن يقبلها ولا أعارها طرفًا، أتراه أعرض عن الكل ثم يريد البعض؟! حاشاه من ذلك، وإنما لمّا وصلت إليه هذه الهداية رأى أن لابُدّ من قبول شيء منها فقال: «**حُبّب إليّ من دنياكم ثلاثة**».

وقال أبو بكر الصديق ﷺ: «وأنا حبّب إلي من دُنياكم ثلاثة: القيام بي يديك، والإنفاق عليك، والنظر إليك ﷺ»، وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «وأنا حبّب إلي من دنياكم ثلاثة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإغاثة الملهوف».

وقال عثمان ﷺ: «وأنا حبّب إليّ من دنياكم ثلاث: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام»، وقال علي بن أبي طالب ﷺ: «وأنا حبّب إليّ من دنياكم ثلاثة: الصَّوم في الصَّيْف، وإكرام الضَّيْف، والضرب بالسَّيْف» فأوحى الله تعالى إلى حبيبه: «**يا محمد**

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٣٨٠).

(٣) رواه النسائي (٧/ ٦١).

وأنا أحُبّ من دنياكم ثلاثة: بدن صابر، ولسان ذاكر، وقلب شاكر»[1].

ولقد أنزل جبريل عليه السلام بثلاث خصال هنّ مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة وهو قوله تعالى: ﴿**خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ**﴾ [الأعراف:١٩٩] وهو أن يصل من قَطَعَه، ويعطي من حَرَمه، ويعفو عن من ظَلَمه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لقد جمعت هذه الآية مكارم الأخلاق».

وقال علي رضي الله عنه: «الكبائر ثلاث: اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وثلاثة فيهن ذِلّة وقِلّة وزلّة: مَنْ اعتزّ بمخلوق ذَلّ، ومَنْ اعتمد على عقله زَلّ، ومَنْ استغنى بماله قَلّ، وإيّاك أن تكون مِنْ ثلاثة: ممن يحب الصالحين ولا يخالطهم، ويلوم المذنبين ولا يجتنبهم، ويلعن إبليس في العلانية ويطيعه في السرّ، وثلاثة يحقّ لهم البكاء: حرُ ابتُلِيَ بعبد، وعاقل ابتُلي بجاهل، وكريم احتاجَ إلى لئيم».

واعلم أن البقاء له ثلاث علامات: حضور لا غيبة فيه، وشهود لا شهوة فيه، وخمود لا فترة فيه، ولا يصل إلى هذه الثلاث إلا بثلاث: معين، ودليل، وزاد، فالمُعِين هو الله، والدليل رسول الله، والزّاد يقين المتقين، والمتقون على ثلاثة مقامات: مقام العامّ، ومقام الخاصّ، ومقام خاصّ الخاصّ، فمقام العامّ على ثلاث مراتب: تبديل الكفر بالذكر، وتبديل الشرك بالشكر، وتبديل الجَحْد بالعقد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [الأنفال:٣٧].

وأمّا مقام الخاصّ فله ثلاث علامات: تبديل الجفوة بالصفوة، وتبديل الخُلطة بالعزلة، وتبديل العزة بالذلة، وأما مقام خاصّ الخاصّ فله ثلاث علامات: تبديل الاسم بالاسم، وتبديل السُّكْر بالصحوة، تبديل الوجود بالمحو، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام:٩١] ولكن لا يرى العبد ذَرَّةً من مقام التقوى حتى يدخل في مقام التوحيد، وللتوحيد ثلاث علامات: مقام يرجع إلى العقل، ومقام يرجع إلى القلب، ومقام يرجع إلى الخاطر، فأمّا الذي يرجع إلى العقل فإثبات ثلاثة منزّهة عن ثلاثة: إثبات موجود غير مفقود، ومعلوم غير موهوم، ومحمود غير محدود، وأما الذي يرجع إلى القلب إثبات ثلاثة منزّهة عن ثلاثة: مَعْرفة من غير إشارة، ومحبّة من غير عبارة، وإرادة من غير علاقة، وأمّا المقام الذي يرجع إلى الخاطر فثلاثة منزهة عن ثلاثة: خاطر يشير إلى الأزل

---

(١) رواه معمر في جامعه (١١/ ٣٠٤).

من غير زمان، وإلى الأبد من غير مكان، وإلى الوجود من غير حدود، وقيل في ذلك:

طافــتْ قلــوبُ العــارِفين بعرْشِــه سرًّا فأوجــدَها الطَّــواف عُيانًــا

وسَــعَتْ فَخَرَّقــت الــستورَ وكوشــفت وتمازجــت فأباحَهــا الكتمانــا

انتهى.

والثلاثيات كثيرة، منها قوله ﷺ: «**ثلاث هنّ عليّ فريضة وهنّ لكم تطوع: الوتر، وركعتا الضحى والفجر**»(١).

وقوله ﷺ: «**ثلاث لا تُرَدّ: الوسائد، والدّهن، واللبن**»(٢).

وقوله ﷺ: «**ثلاث لا يُحاسَب بهن العبد: ظلُ خَصِر يستظلّ به، وكِسْرَة يشدّ بها صُلْبه، وثوب يواري به عورته**»(٣).

وقوله ﷺ: «**ثلاث لا يفطر به الصائم: الحجامة، والقيء، والاحتلام**»(٤).

وقوله ﷺ: «**ثلاث لا يُعَاد صاحبهن: الرمد، وصاحب الضّرس، وصاحب الدمّل**»(٥).

وقوله ﷺ: «**ثلاث يجلين البصر: النظر إلى الخضرة، وإلى الماء الجاري، وإلى الوجه الحَسَن**»(٦) أي: المشار إليه بقوله ﷺ: «**من قام بالليل حَسُن وجهُ بالنهار**»(٧) إلى غير ذلك.

واعلم أن الأسفار- على ما ذهب إليه سيدي محيي الدين قدس الله سره- ثلاثة: سفر من عنده، وسفر إليه، وسفر فيه، ودرجات الطريق ثلاثة: درجة العامّة، ودرجة السالك، ودرجة المحقّق، والطريق: أوله جنون، وأوسطه فنون، وآخره سكون، والولاية: صُغرى، ووُسطى، وكُبرى.

والمراتب ثلاثة: مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان.

(١) رواه البخاري (١/ ٣٨٣).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ١٠٨).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٥٧١)، والحاكم (٤/ ٣٤٧).

(٤) رواه الترمذي (٣/ ٩٧).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٥٥).

(٦) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٩١).

(٧) رواه ابن ماجه (١/ ٤٢٢).

ومنازل السائرين ثلاثة: منزل عالم الفناء، ومنزل عالم الجذبة، ومنزل عالم القبضة، ولكل مقام من مقامات الطريق ثلاث درجات: بداية، وتوسط، ونهاية.

والإشارات ثلاثة: إشارة سالك، ومحبّ، ومجذوب، وتنقسم إشارة كل واحد مهم إلى: عُليا، ومتوسطة، وسفلى.

واليقين له ثلاث مراتب: الأولى علم اليقين، والثانية عين اليقين، والثالثة حق اليقين، وللطريق ثلاثة أنساب: نسب الخدمة، ونسب المحبة، ونسب الصحبة، وقد أَلّفنا في هذه الثلاثة رسالة سمّيناها: «رسالة الصحبة» وله ثلاث درجات: أوّلها التعلّق، وأوسطها التحقّق، وآخرها التخلّق، وأوّلها عناء، وأوسطها فناء، وآخرها غناء، وأوّلها تعديد، وأوسطها تجديد، وآخرها تفريد، وأولها جفاء، وأوسطها صفاء، وآخرها خفاء، وأولها اجتماع، وأوسطها انتفاع، وآخرها ارتفاع. وأحرف الجلالة المجتمعة ثلاثة كالأشهر الحرم والألف الفرد كرجب الفرد.

ولمّا كان الشيخ ﷺ من أهل الرسوخ في المقام التوحيدي الجامعين بين توحيد الأفعال وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الذات ذكر هذا الاسم الجامع لكل توحيد مرة، وأمّهات الأسماء التي ترجع إليها القصص القرآنية ثلاثة: الله، والرب، والرحمن فأشار إليها بالثلاث، وأيضًا فإن الأسماء تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم للتعلّق والتحقّق كالرحمن، وقسم للتعلق والتحقّق والتخلّق كالستّار والغفّار، وقسم برزخ جامع كالله، فإنه اسم الذات الموصُوفة بجميع الأسماء والصفات فله حكم البرزخية من حيث إنه جامع للقسمين، ومن حيث هو اسم الذات فلا يتخلّق به بحال، وسرّ ذلك يظهر في البسملة، فإن (بسم) مرتبة ذاتية، واسم الجلالة المرتبة البرزخية، والرحمن الرحيم لها المرتبة الصفاتية، فلما كانت المراتب ثلاث أشار الشيخ إليها بتكرير الاسم ثلاثًا، وقد جعل الحق مراتب الأسماء ثلاثة في قوله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ [الإسراء:١١٠]، ولما كان اسم الجلالة له الحيطة التامّة والمنزلة العامة قدّمَه ثم أردفه بالرحمن، فإن حيطته دون حيطة اسم الذات، وإن كان هو أيضًا مما اختص الحق به؛ لكن حيطة اسم الجلالة أوسع وأجمع.

ثم جعل بقية الأسماء رتبة واحدة، والمراد منها وإن كثرت معرفة أن المسمى بها واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، فلهذا قال: اللهُ اللهُ اللهُ أي: إن نظرت إلى الذات.

قلت: الله، وإن نظرت إلى الصفات.

قلت: الموصوف بها الله، وإن نظرت إلى الأفعال وأن الفاعل هو الله.

قلت: الله، وإن نظرت إلى الأحدية قلت: الله، وإن نظرت إلى الواحدية.

قلت: الله وإن نظرت إلى الوحدانية.

قلت: الله؛ لأن الموصوف بكل الصفات الجلالية والجمالية والكمالية هو الله، ولمّا قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**قُلِ اللهُ**﴾ قال مقتفيًا أثره: الله وكرّرها ثلاثًا لسرّ القرب الأكمل المشار إليه بقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ [النجم: ٨، ٩]، وبقوله: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:١]، وهي تعدل ثلث القرآن فمن كررها ثلاثًا فكأنما قرأ القرآن مرة واحدة، والقرآن في اصطلاح القوم عبارة عن الذات المسمّاة باسم الله فإذا ذكره العبد المعتنى به مرة أحضر، وفي الثانية يغيب في حضوره، وفي الثالثة يغيب بشهود غيب الغيب عن الحضور، فيكون الذاكر في ذلك المقام هو المذكور، وهذا ذكر الله، ولذكر الله أكبر، وقد يكون مراد الشيخ غير ما ذكرنا، وإشارته أدقّ مما له أشرنا، فإن شرح الكلام على مراد المؤلف لا يكون إلا من صاحب إشراف على مراد المؤلف، وهذا مخصوص بأهل الكشف الرّباني والفيض الإحساني، والكلام على هذا الاسم من حيث اشتقاقه، وما يدخل تحت حيطته وأسراره وأنواره يستدعي إلى مزيد بسط وسعة مجال، وقد تكلم عليه كثير من أهل الله الرجال، قال الشارح -رحمه الله تعالى-: ثم قال -رحمه الله تعالى ورضي عنه-: (الله الله الله) أتى ﷺ عقب مطالبه بلفظ الجلالة وكرّره ثلاثًا لفوائد، أمّا تلفظه به عقب مطالبه فللتبرّك به، وليكون به الاختتام كما كان به الافتتاح، وفيه إشارة إلى أن كل شيء منه بدأ وإليه يعود وهو الأول والآخر، وحَسُنَ مجيء اسم الله بعد قوله: (**واجمع بيني وبينك وحُلْ بيني وبين غيرك**) إيقاظًا للأرواح وتنبيهًا لها إلى التعلق بما له طلبت والتخلّي عمّا عنه رغبت عملاً بقوله: ﴿**قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُم فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام:٩١]، وتكريره ثلاثًا؛ ليثبت معناه في الباطن ويتأكّد في القلوب، وأيضًا لمّا كان اسم الجلالة تضمّن معاني أسماء الأفعال ومعاني أسماء

الصفات ومعاني أسماء الذات كرّره عددًا بحسب ما تضمّنه من المعاني؛ ليورد ذاكره في كل مرة معنى من المعاني التي تضمّنها، وهذا أثْبَتُ في النفوس وأرسخ في البواطن سيّما لأهل البدايات الذين يضعفون عن إيراد معاني كثيرة مع لفظ واحد، ومقصد الشيخ وأمثاله من العارفين غير هذا؛ إذ المقاصد بحسب المقامات، ولا يبعد أن يكون مقصده في تكرير لفظ الجلالة العدد الثلاثي لَمَا في هذا العدد من الأسرار الحرفية أو خرقًا للحُجُب الكونية الملكية والملكوتية والجبروتية، فكل ذكر يخرق عالمًا من هذا العوالم، فلا يكمل العدد إلا وهو في حضرة القدس في مقعد صدق عند مليك مقتدر، وقد شاهدت بعض من له همّة عالية في السلوك إذا ذكر الله ثلاث مرات يترقّى في كل مرة مقامًا من المقامات، فإذا قال: الله أولاً يكون في مقام الإسلام، وثانيًا في مقام الإيمان، وثالثًا في مقام الإحسان، هكذا حكم أرباب المقامات، وأما حكم أرباب الأحوال فقد ينتقل العبد في ذكره من حال إلى حال أعلى فيقول أولاً: الله وهو في حال البقاء، ثم إذا قالها ثانيًا يكون في حال الفناء، ثم إذا قالها ثالثًا يكون في حال الفناء، عن الفناء وهذا أتم حالات أهل الأحوال، وسرعة الانتقال في المقامات والأحوال إنما يكون لأرباب الجذب المأخوذين عن أنفسهم، فأرواحهم سماوية إذا عاشت طاشت، وقلوبهم عرشية إذا سارت طارت، وأسرارهم جبروتية إذا طابوا غابوا فافهم.

انتهى.

ولمّا كان المؤلف ﷺ من أهل السّكر والصّحو معًا، فلا يغيّبه سكرُهُ عن صحوه ولا صحوُهُ عن سُكْره، وهذا مشهد الجامع الفارق، فإنه إذا نظر إلى التجليات الحقية سكر وغاب ذا نظر إلى الصفات حضر وطاب، فهو برزخ بين الحضور والغيبة، متمكّن في مقامي الأنس والهيبة يشهد الحق في الخلق، والخلق في الحق شهود ظهور وبطون، وسرّ مصون في درّ مكنون، وهذه حالة الأوّاب وإليه الإشارة بقول الصدّيق الأكبر -قدس الله سره الأفخر-: «ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله».

وقول الخليفة الثاني ﷺ ما تُلِيَتْ المثاني: «ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه».

ويقول الخليفة الثالث الأكرم ﷺ: «**ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله معه**».

وبقول الرابع الخاتم الحفيظ الكاتم ﷺ: «**ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله بعده**»[1]، ثم أشار

(١) قال الشيخ الشعراني في «مختصر الفتوحات» ما نصه عن الشيخ: وقال في الباب الثالث والأربعين وأربعمائة في معرفة منازلة واجب الكشوف العرفاني في قول الصديق ﷺ: «ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله =

إلى الرجوع بعد الذهاب في الله بآية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥]، فإن الرجوع صحوُ والذهاب محو، وأهل المحو -وإن جلّوا- منفعهم قاصر عليهم بخلاف أهل الصحو فإن نفعهم عامّ وإمدادهم طامّ، ولما طلب مقام الجمع الكلّي المفضي إلى الفناء والاستغراق والغيبة بالحق في الحق للحق بدون احتراق واختراق، ثم أشار بتكرير الذكر إلى الوجود في الأولى، والخمود عن الخمود في الثالثة والثانية، طلب بطريق التعريض مقام الرجوع والصحو، بعد الذهاب والمحو، ليكون نائبًا عن إمامه الأعظم في الدعوة إلى الطرق الأقوم، وهذا المقام عزيز وأهله المحققون قليلون، وإن كان الذين يدّعونه كثيرون، ولا يكون الإرث المحمدي على الكمال في كل عصر إلا لواحد، فإن جنب الحق جلّ أن يكون موردًا لكلّ وارد، وإنما يختص به واحد بعد واحد، وصاحب هذا المقام هو صاحب الخلوة بالله.

قال الشعراني ﷺ في «الطبقات»(١): وكان سيدي علي الخوّاص يقول: الخلوة بالله وحده لا تكون إلا للقطب الغوث في كل زمان، فإذا فارق هيكله المنوّر بالانتقال إلى الدار الآخرة انفرد الحق تعالى بشخص آخر مكانه، لا ينفرد قطّ في زمان واحد بشخصين.

قال: وهذه الخلوة وردت في الكتاب والسنة ولا يشعر بها إلا أهل الله خاصة.

وقال: ورأيت هذا بعينه في كلام الشيخ محيي الدين أيضًا.

قال: وأما خلوة غير القطب فلا تكون إلا بالله وإنما هي لمزيد الاستعداد، والبعد عن عمّا يشغله عن الطاعات من المخلوقين انتهى.

=

قبله»: اعلم أنه ثم إنسان حيواني وإنسان خليفة، فالخليفة هو من يرى انفعال الأكوان عن الحق، وليس ذلك لغيره، كما أشار إليه الصديق بقوله المذكور، فصاحب هذا المقام يرى صدور الأكوان عنه في الأكوان، ويرى صورة التعلق، وهل يكون علمنا بالحق في ذلك التجلي على صورة ما يتكون عنه أو على صورة النسبة التي تكون بها التي يقول للشيء كن فيكون ذلك الشيء؟ ويرى من أين يقبل المأمور بالتكوين الكون هل يقبله من أمر وجودي أم لا؟ وإذا ظهر هل يظهر بصورة الاسم الذي قال به الحق له كن أو يكون هو عين الصورة التي قال لها: كن فكانت في حق الحق اسمًا، وفي جوهر الكون خلقًا وصورة؟ فإذا كانت بهذه المثابة هل تنفي تلك الصورة الإسمية على ما شاهدها في الحق، أو يظهر بذلك الاسم في صورة أخرى لتكوين عين أخرى لاختلاف الأمثال لما بينهم من التميز الذي به يقال: هذا ليس هذا، وهذا مثل هذا، كل هذا يطلبه العارف حتى يقف عليه من نفسه على بصيرة، وأطال في ذلك، والله تعالى أعلم.

(١) في (١/ ٣٨٨).

وقد تكلّمنا على الخلوة ولوازمها في رسالة «هدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب» وفي رسالة «بلوغ المرام في خلوتية الشام».

وقال القاضي -رحمه الله تعالى-: (﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾) أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه (﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾) أي: ميعاد وهو المقام المحمود الذي وعدك أن يبعثك فيه، أو مكة التي وُعِدت بها - على أنه من العادة- وَرَدَّه إليه يوم الفتح، كأنه لمّا حكم أن العاقبة للمتقين وأكّد ذلك بوعد المحسنين ووعيد المسيئين وعده بالعاقبة الحسنى في الدَّارَيْن، رُوِيَ أنه لمّا بلغ جحفة في مُهَاجره اشتاق إلى مولده ومولد آبائه فنزلت. انتهى.

وهذه الآية يكرّرها من وقع في شدة أو في يد ظالم أو رأى عين غدر من أحد يحصل له الفرج سريعًا.

قال شيخنا المرحوم الشيخ عبد اللطيف الخلوتي -روّح الله روحه-: قد جربت هذه الآية فرأيتها صحيحة.

قال: وقد أفاد فيها رجل من العلماء الكبار.

وقال الشارح رحمه الله تعالى: قوله في آخر تصليته: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد) هذه آية فردانية أتى بها -رحمه الله تعالى- لما فيها من معنى الرجوع والمعاد على منحى أهل الإشارة اللطيفة والمعاني الشريفة مع تقريرهم للآية على ظاهرها المعروف، وفهم معناها المألوف، ثم ختم بقوله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدا﴾ [الكهف:١٠] دعاءً ورغبة. انتهى.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ﴾ [الكهف:١٠] قال القاضي: يعني فتية من أشراف الروم راودهم دقيانوس على الشرك فأبوا وهربوا إلى الكهف ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف:١٠] توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الكهف:١٠] من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رَشَدًا﴾ نَصيرُ بسببه راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا كله رشدًا، كقولك: رأيت منك رشدًا، وأصل التهيئة إحداث هيئة الشيء انتهى.

وقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف:٦٥] قال القاضي: الجمهور على أنه الخضر، واسمه: يليا بن ملكان، وقيل: اليسع، وقيل: إلياس ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف:٦٥] هي الوحي والنبوة ﴿وعَلَّمْنَاه من لدُنّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥] مما يختص بنا ولا يعلم إلا بتوفيقنا وعلم الغيب، انتهى.

فكان الشيخ ﷺ طلب من ربه ﷻ أن يمنّ عليه بما مَنَّ به على أهل الكهف من إتيان الرحمة والرشد في الأمر، وأن يدخله كهف الإيقان من المكر والاستدراج، فإن مطالبه أعظم المطالب، فكأنه يقول: فإذا مننت عليّ يا ربّ بمطالبي السابقة، فآتني رحمةً من عندك أتقوّى بها على حمل ما أعطيتني، وهيئ لي من أمري رشدًا أنجو به من مكرك، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

قال الشيخ إسماعيل بن سَودكين -رحمه الله عليه- في كتاب: «لواقح الأنوار ولوامح الأسرار» الذي جمعه من كلام شيخه سيدي محيي الدين -قدس الله سره- وسألته ﷺ عن قول القائل:

إنّ عينًا تراكَ في الدَّهر يومًا تلك عينٌ من العَمى في أمان

فقلت: يصحّ عدم الخوف لصاحب هذه العين والمقام؟ فقال -أيّده الله تعالى-: ثَمّ أصل ينبغي أن تعلمه وتتحقّق به، قلت: إن شاء الله تعالى يا سيدي، قال: وهو ألا تحكم على الله تعالى بشيء لو بلَّغك أعلى المراتب وأكملها وقال لك: قد رضيت عنك رضاي الأكبر، فبعد هذا كلّه لا تَأْمَنْه؛ ينبغي أن تؤتي الألوهية حقها، وانظر إلى الخبر الذي وَرَدَ عن جبريل وإسرافيل -عليهما السلام- أنهما كانا يبكيان فقال لهما الحق-وهو أعلم-: ما لذي يبكيكما؟ فقالا: خوفًا من مكرك، فقال لهما سبحانه: كذلك فكُونا انتهى.

وقد سأل الله تعالى أهل الكهف ما منحه الحق للخضر ﷺ، فحصلت المناسبة بينهم، فلهذه المناسبة جمعهم الله في سورة واحدة أشار أن المطلب والمشرب واحد، وقد جمع الخضر في شربه بين الشرب من عين ماء الحياة الظاهرة وعين ماء الحياة الباطنية، وأهل الكهف اقتصروا على الثانية، فحصلت المناسبة أيضًا، ولمّا سأل المؤلف أن يجعل الحقُّ الحجابَ الأعظم حياةَ رُوحِه، ليكون ممن سُقي من عين ماء الحياة الباطنية الأبدية، ناسب في ذلك أهل الكهف الذين شربوا منها، ثم إنه ﷺ سأل سؤالهم ليشير أنه قد ناله ما نالهم، وختم صلواته النبوية بهذه الآية السنيّة العليّة، ووجه مناسبة الختم بها أن من آتاه ربه رحمة من عنده وهيّأ له من أمره رشدًا، فقد كمل بدر سعوده، وتم ظهور نور شهوده، وحصّل غاية المرام ونهاية مطالب الكرام، فناسب ذكرها في الختام وليكن هذا آخر ما أردنا كتابته على الصلوات النبوية، جعل الله ذلك متقبّلاً لدية بجاه محمد خير البريّة.

ولقد رأيت قبل شروعي في شرح هذه الصلوات البشيشية جناب العارف الكامل المرشد بالإرشاد الشامل الشيخ محمد المزطاوي-قدس الله سره- وحصل بيني وبينه وصلة

تامّة ومحبة شاملة عامّة، وألفة زائدة تحقّق حصول الفائدة، ثم رأيته مرة ثانية، وحصل منه منحة قطوفها دانية، ثم رأيته مرة ثالثة فعجبت من توالي رؤيته وتحقَّقْتُ وفور محبته، فلمّا شرعت في هذا الشرع.

قلت: هذا دليل على تحقّق حصول الاندراج في سلك طريقهم العليّة الزكيّة، والتمسّك من عبير طيب أنفاسهم الذكيّة، والحمد لله أولاً وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا على نعمه التي لا تحصى أبدَ الآباد ولا تستقصي، والصلاة والسلام على سيد الأنام ومصباح الظلام وبدر التمام محمد المبعوث للخاص والعام، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه الأعلام ما سحّ الغمام، وسلمّ تسليمًا إلى يوم القيام، والحمد لله رب العالمين.

وقد كمل الشرح -والحمد لله- سَحر ليلة الأربعاء التي هي ختام العشر الأول من شهر رمضان المبارك سنة ١١٣٤هـ.